كندا

- زيارة للهنود الحمر
- موت الأفيال .. وصمت الأرامل
- الثعبان الخالد
- حيوانات لها وافر الاحترام
- منورة .. بأهلنا
- صورة حلوة .. وصورة مرة
- من كل فيلم أغنية
- الحياة هنا .. لونها بمبى !!
- مسلمون فى الشمال
- شلال الغرام

زيارة للهنود الحمر!

الهنود الحمر فصائل كثيرة تزيد على اثنتى عشرة فصيلة، موزعة على أراضى أمريكا يعنى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وشمال المكسيك وألاسكا.

وفصيلة الهيوزنز واحدة من فصائل الهنود الحمر وموطنها مقاطعة «كيبك» بكندا، وربما هى الفصيلة الأسعد حظا، فلا تواجه نفس الدرجة من التعتيم والظلم التى تواجهها باقى الفصائل الهندية.

ومقاطعة كيبك فى الأصل فرنسية الجنسية والثقافة وحتى التاريخ. ففى عام ١٩٠٥ شيد الفرنسيون أول مستعمرة فى أمريكا الشمالية، وزرعوا الأرض واصطادوا أسماك المحيط الأطلسى، أطلقوا على بلدهم الجديد اسم «أكيديا».

لكن بريطانيا التى عرف عنها ملاحقتها لفرنسا فى التاريخ وعلى كل جغرافيا، طردت الفرنسيين من «أكيديا» وحصرت بقاءهم عبر المحيط فى مقاطعة واحدة هى «كيبك».

لكن وجود الفرنسيين فى مقاطعة «كيبك» كان فى صالح الهيورنز. وفى صالحى شخصيا، فقد أتاحوا الفرصة للهيورنز أن يتنفسوا فى النور، وأن أطلع على حياتهم وأراقب سلوكياتهم، وأحفظ أغانيهم وأقرأ تاريخهم.

فقد عرف عن الفرنسيين شغفهم بثقافات الشعوب وربطها بثقافتهم، فكونوا منظمة دول الفرانكفونية من ٥٥ دولة تتحدث بالفرنسية. ولذلك سعوا للاطلاع على ثقافة الهنود الحمر، وتركوهم يعلنون عن أنفسهم عكس ما حدث فى باقى المناطق التى يعيشون فيها فى الأراضى الأمريكية.

بل تأثر أهل كيبك بفنون الهنود الحمر وتراثهم، وتدخلوا فى الخامات التى يصنعون منها ملابسهم، وأضافوا إلى قائمة طعامهم السلطات الفرنسية وبعض الأطباق الأخرى، ولم أشعر لحظة أن كيبك قد اهتمت بالهنود الحمر لأسباب سياحية، صحيح أن ثمن الفرجة على قرية الهنود الحمر حراق حبتين، والمشوار طويل نسبيا. إلا أن الأسباب ترجع لعوامل أخرى هى غرام الفرنسيين بثقافات الشعوب البسيطة.

العالم الجديد سحق الهنود

كان الهنود الحمر يعيشون مستقرين على أراضيهم، وفى عام ١٤٩٢ اكتشف كريستوفر كولومبس هذه الأراضى، وسميت وقتها «العالم الجديد». وكانت حكومة بعض الدول الأوروبية تنفى فيها رعاياها المجرمين والمحكوم عليهم وأصحاب السوابق. واكتشفت السلطات أن هذا «العالم الجديد» غنى بالمناجم وأراضيه الزراعية خصبة وفيه ثروات من كل نوع فتدفق عليه كل من لا عمل له فى بلاده والمغامرون من أوربا وآسيا، وجميعهم مسلحون. قتلوا أصحاب الأرض واستولوا على ممتلكاتهم وأراضيهم ثم كونت كل مجموعة منهم كيانا سياسيا باسم «ولاية» واستوردوا العبيد من أفريقيا ليبنوا بالسخرة، ثم اتحدت الولايات فى دولة واحدة، هى الولايات المتحدة الأمريكية، واتخذت لها شعارا هو الحرية للجميع، ووضعت تمثالا يجسد هذا الشعار فى مدخلها الشرقى علقت عليه لوحة مكتوبًا عليها نداء موجها إلى شعوب العالم يقول الشعار:

«أعطونى فقراءكم والمكدودين منكم وجموعكم المهضومة الحقوق المتحرقة لنسيم الحرية، أعطونى الفائض الملفوظ الذى يموج على شواطئكم، ابعثوا بهؤلاء المشردين الضائعين ومن أحاطت بهم العاصفة.. ابعثوا بهم إلىّ».

لكن الهنود الحمر عانوا كثيراً من اضطهاد البيض لهم وفقدوا الأهل والمسكن والخيرات. وذاقوا الويل فى حروب ابتكر فيها البيض وسائل للإبادة والقمع مثل حرائق الدخان حول المغارات المختبئين فيها. وحتى بعد أن استقرت الشعوب البيضاء فى دول ذات قوة وسيادة توقفت حروب الإبادة لكن حرب الظلم والتعسف لم يتوقفا. وهذه بعض صور هذا الظلم.

اتفقت الولايات الغربية الأمريكية مع الهنود عام ١٨٨٧ على اعتبار أحد عشر مليونا من الأفدنة من أراضى الهنود وقفًا لدى الولايات تسدد لهم عنها ما يساوى ثلاثمائة مليون دولار سنويا، فهى أراض غنية بالبترول والفحم والغاز وصالحة لعمليات الرعى وقطع الأخشاب أى أنها تمثل القيمة الاقتصادية الكاملة لهذه الولايات ولم تدفع الولايات لأصحاب الأرض القيمة المتفق عليها، وقالوا إنهم سوف يضعون لهم فلوسهم فى «حصالة» يستطيع الهنود فتحها فى العيد، تماما كما نقول لأطفالنا السذج عندما نريد أن نلتهم حصيلة ادخارهم لمدة طويلة! والحقيقة أن الولايات وضعت بعض الأموال وليست كلها فى صناديق استثمار ذات عائد وأرباح يتم تحصيلها للصرف منها على شئون أخرى لا علاقة لها بالهنود.

ويتهم المحامون وزارة الداخلية الأمريكية بالفشل فى إدارة الوقف الهندى وسبق أن اتهموا وزارتى الداخلية والمالية فى عهد الرئيس كلينتون بسوء التصرف فى صندوق الاستثمار للفلوس الهندية، ويقدر المحامون العوائد المفقودة والمسلوبة من الهنود فى هذا المشروع الذى أعلنه الكونجرس الأمريكى ١٨٨٧ بعشرة مليارات دولار، لكن إبقى قابلنى إذا حصلوا منها على «بك» أى دولار .

ومن النادر أن تعرف الكثير عن حياة وتاريخ الهنود الحمر فى أمريكا، فعلى كثرة اهتمامهم بالشعوب البدائية والفقيرة فى حواديتهم

لا تجد للهنود ذكرًا، وعلى كثرة أفلامهم المستوحاة من التاريخ لا تجد لهم سيرة وحتى مدينة ديزنى الشهيرة التى تلتقط كل الطرائف والعجائب من بلاد الدنيا لم تتعرض المدينة لأى ملمح مستوحى من حياة الناس الأصليين الذين يملكون حق الحياة على الأراضى الأمريكية.

والسكان الأصليون لاستراليا هم «أبوريجيتال» ويعيشون فى الجبال تعلمهم الدولة وتعالجهم وقد سلطت الضوء على تراثهم الغنائى عندما اشترك مطربهم الشهير يوثيندى فى حفل ختام دورة الألعاب الأولمبية التى أقيمت عام ٢٠٠٠ فى مدينة سيدنى، كما اعتبرت أدوات الصيد وآلات الموسيقى عند «أبوريجيتال» فولكلورا ومادة يبتاعونها للسائحين.

وكذلك فإن «الماورى» وهم السكان الأصليون لنيوزيلنده يحتفظون بتراثهم الاجتماعى والثقافى ويتعاملون بلغة خاصة بهم. ومنهم من له تأثير سياسى كبير فى المجتمع ومن وصل إلى درجة الأستاذية فى الجامعات النيوزيلندية.

أما الهنود فقد تصورت أنهم انقرضوا كالديناصورات والكنافة اليدوى، فلما عرفت بالصدفة، إمكانية زيارتهم فى عقر دارهم، والتعرف على ثقافتهم، كانت مفاجأة كبرى، وسعادة ما بعدها سعادة لى خاصة إننى جئت إلى «كيبك» ولم يخطر على بالى أن تكون زيارة بهذه الأهمية إنها ثمرة من ثمرات اهتمام الفرنسيين فى كيبك بثقافات الشعوب البسيطة والبدائية.

اللغة هندية فرنسية

للهيوزنز لغة خاصة، تكتب بالرسم، لكن ما وصلنا منها كتب بالحروف اللاتينية وبالتحديد الفرنسية. فالفرنسيون أينما وجدوا ركزوا

على لغات الشعوب. وفى مقاطعة كيبك يا ويلك إذا لم ترطن معهم بلغتهم. وبالرغم من أن دستور كندا يوجب التعامل باللغتين الإنجليزية والفرنسية فإنهم لا يتكلمون إلا الفرنسية ومن لا يتكلمها لا فرصة له للعمل ولا للتعليم، ويقوم بوليس المقاطعة بحملات يختبر فيها العاملين الأجانب فى اللغة الفرنسية ومن يرسب فليحمل هدومه ويرحل من المقاطعة كلها.

والكلمات التى استمعت إليها من الهيوزنز منطوقة بالهندية وقريبة فى جرسها من اللغة الصينية لكنها مكتوبة بالحروف الفرنسية.

يستقبلك الهنود بكلمة **Koey** يعنى أهلا ويودعونك بـ **Onne** يعنى «باى.. باى..» أما إذا دفعت البقشيش فتسمع منهم **Ngyawen** يعنى كتر خيرك..

الموقع الذى قصدنا رمزى وربما يكون بداية لقرية حقيقية للهيورنز، ينتهى بغابات يعلم الله مداها، هو فى أطراف مدينة «كيبك» يفصله عن البيوت الكندية سور طويل من جذوع الشجر والحطب، معلق عليه أقنعة لوجوه تم نحتها على جذور الأشجار، ورسومات غريبة على جلود حيوانات، المدخل ضيق ويقسم إلى حارتين ضيقتين إحداهما للداخل والثانية للخارج، على اليمين شباك تذاكر يسألك عن الأركان التى تريد زيارتها، وهل تفضل أن تحضر عرضا يمثل الرقصات الهندية، ثم إن المرشد المرافق يتكلم الفرنسية فإذا أردت مرشدا آخر فعليك أن تطلب ذلك، ثم تعطيك موظفة الشباك «ستكر» عليه شعار القرية، يجب أن تلصقه على صدرك، ربما لكيلا يتوه من دفع مع من لم يدفع ثمن تذكرة الدخول واستطاع أن يدخل «تزويغا» ثم لتبدأ الزيارات المهمة جدا، زيارتنا للهنود الحمر:

أبيض وأسمر

فى وسط القرية يواجهك المنزل الكبير Long house تصطف أمامه فرقة راقصة معها آلاتها من دف وشخاليل والإكسسوارات زهرة عباد الشمس وقوس صيد مزخرف بريش زاهٍ للطيور والملابس «جيلية» أى صديرى وبنطلون، للرجل وصديرى وجونلة للفتاة وهما من الشامواه بلون الخشب الطبيعى.

تستقبلك الفرقة برقصة «الترحيب» على إيقاع هندى خالص اسمه «تام — تام Tam — tam» ، وهو إيقاع بسيط أو بدائى يعزفه الراقص على الدف ، لكن صوت «دبدبة» أرجل الراقصين تعلو على صوته وتطلق حول الراقصين سحابة من الأتربة والرمال من الأرض التى لا تسمع عن اختراع الأسفلت ، أما الراقصون فالنساء منهم يتحركن بدلال وأنوثة حركة شعبية كأنها فى زار، والرجال يقوسون ظهورهم ثم يرقصون فى انحناءة إلى الأمام مع تمويج القوس المزخرف فى أياديهم.

أعضاء فرقة الرقص منهم البيض اللون ومنهم السمر وليس بينهم من هو بلون أسود، لاحظ المرشد علامة استفهام فى عينى، فبادرنى قائلا: كل أعضاء الفرقة من فصلين من الهنود الحمر الذين يعيشون فى مقاطعة «كيبك» وهم «الهيورنز» و «المونتانييه».. والاسم الثانى فرنسى النطق ويوضح تأثير الفرنسيين على الفصيلتين الموجودتين فى «كيبك».

وترجع علاقة الفرنسيين من أهل كيبك بالهيورنز والمونتانييه إلى عام ١٧٥٠، وكما تأثر الفرنسيون بالهنود الحمر تأثر الهنود بهم ويظهر ذلك فى كثير من العادات المكتسبة لدى الهنود الحمر.

لم يكن الهنود الحمر قبل الثقافة البيضاء أو بعدها زنوجا، ولا هنودا.. ولا هم حمرا! كما تصور كثيرون منا، وهذه مفاجأة كبرى لى ولكن تجاوزوا صفة البدائية، ويظهر ذلك من القيم التى يتمسكون بها والتى تعبر عنها فنون الغناء والرقص عندهم، وسلوكياتهم فى المناسبات المختلفة تؤكد أن الزيارة للهنود الحمر كانت واجبة لتصحيح كثير من المفاهيم عن هذا الشعب الذى ظلموه..

موت الأفيال وصمت الأرامل

فى قرية الهيورنز «بوتيك» فيه كل ألوان الفنون التى يمارسها الهنود الحمر وقد أثرت العلاقة بين الفرنسيين من أهل كيبك، والهنود الحمر على كل أوجه الحياة الهندية.. وخاصة فى مجال الصناعة. ومنها صناعة قوارب الصيد التى كان الهنود يعتمدون فيها على جذوع الأشجار وأوراقها فأصبحت تصنع من أصناف جيدة من الأخشاب المهذبة، أما الملابس الهندية فقد أخذت الشكل الأوربى، فأصبحت تتكون من صديرى وبنطلون. الأول من الشمواه وله شراشيب تتدلى من حافته السفلى، والثانى آخر شياكة. أما المرأة فتستبدل البنطلون بجونلة طويلة تغطى ساقيها إلى ما فوق القدم.

والبوتيك، فيه صناعات خشبية تصور أدوات الصيد والزراعة وتماثيل من الجرانيت ووجوهًا منحوته، من الخشب ومزودة بكل أشكال الملابس الخاصة بهم، فوق الرأس، وعلى الأكتاف، أما ريش الطيور الزاهى فيزينً التماثيل والملابس ويباع منفردًا وعلى أقواس الصيد.

وعموما فالتشابه كبير بين فنون الهنود الحمر وما عرف عن فنون الشعوب القديمة. والتأثر بادٍ بفن الفراعنة فى مجال صناعة التماثيل الجرانيتية والمكونة من خامات الألبستر وهو ظاهر وبوضوح، والأكثر وضوحًا هو تأثير الشعوب الأصلية لبلاد ما وراء المحيط الهادى فى استراليا ونيوزيلنده والجزر المجاورة.

وفى مدينة «كيبك» تكونت عام ١٩٠٦ جمعية تخصصت فى حماية الفنون اليدوية التى كان يصنعها هنود الهيورنز، ونقلت منها إلى الشعوب البيضاء التى اعتبرت فن الهنود تراثا يجب عدم التفريط فيه. للجمعية رئيس منتخب مدة رئاسته عام واحد، ويشارك فى عضويتها الفنانون الممارسون للفن اليدوى هناك وبعض الجماهير المحبة لهذا الفن. وتعرض الجمعية فى مقرها الدائم إنتاج أعضائها ثم تصوره على شرائط فيديو وتعرضه للبيع.

وتجمع الجمعية الإنتاج الفنى الذى يدخل فى مضمار تخصصها من كل كندا وليس فقط من مقاطعة كيبك بل يدخل الإنتاج الأمريكى أيضًا ضمن اهتماماتها.

ودخل البيع يمثل جانبا منه دعما ماديا للجمعية فهى تحصل على عشرة فى المائة من قيمة ما تتولى بيعه من إنتاج أعضائها.

وفى قرية الهيورنز مكتبة صغيرة على أرففها كتب عن تاريخ قصائل الهنود الحمر الاثنتى عشرة وأماكن تواجدهما على أرض أمريكا الشمالية. ومن هذه الكتب كتاب **Greet Tee Pee** كذلك فى المكتبة شرائط كاسيت عليها أغان هندية وأسطوانات ليزر لنفس الغرض.

بيت الحيلة

تتكون العائلة فى فصيلة الهيورنز من ست أسر تسكن جميعها فى **Long House** أى البيت الكبير، تشرف عليه الجدة وهى شيخة القبيلة والعاقلة صاحبة الكلمة المسموعة عند الجميع الكبير قبل الصغير.

ولكل أسرة رئيسان، واحد تختاره الجدة، والثانى يتم انتخابه بعملية تصويت مباشر للكبار من أعضاء الأسر الست أى أعضاء مجلس العائلة.

والمنـزل الكـبير Long House يشـبه فـى شـكله الخـارجى شـكل «الخص» الذى يبنيه الفـلاح وسـط أرضـه ، ليخفـى فيـه بعـض حاجياتـه ومأكله « وقُلة المية » وذلك فى موسم تقطيع عيدان الـذرة، أو القصـب فـى صعيد مصر.

المنزل الكبير لهنود الهيورنز يرتفع لأكثر من خمسة أمتـار أمـا عرضـه فيزيد على ستة أمتار، أما عمقـه أو طولـه علـى سـطح الأرض فيزيـد علـى ثلاثين مترا.

الحوائط مسلحة بجذور الأشجار فـى شـكل سـقالات البنـاء الحـديث مزخرفة برؤوس للحيوانات للتوحشة. وأقنعة منحوتة علـى جـذوع أشـجار فى تشـكيلات ثعبانيـة الشـكل والحجـم واللـون. وأشـكال خشـبية اسمهـا «بابيش» وهى صناعة يدوية لآلة يستعملها الهندى عند خروجه للصيد فـى موسم الجليد، على هيئة المضـرب المسـتعمل فـى لعبـة التـنس، مـن دائـرة خشبية لها يد مدببة وشبكة مـن جلـود الحيوانـات يتوسـطها فـراغ ليضـع الهندى فيه إحدى رجليه ولتنغرس اليد المدببة فى الجليـد فتحمـى رجلـه من التجمدّ.

على الجانبين داخل الخيمة تصطف أسرّة العائلة. لكل أسرة سرير – طوله متران وارتفاعه متر ونصـف المتر ومـزود بسـلم مـن سـيقان الأشـجار يسهل عملية الصعود. مفروش بجلود لها وَبَرْ فـوق أخشـاب مـن السـيقان، والصالة أو الفسحة المستطيلة أمام الأسرّة ثلاث حفر غير عميقة ، الأولى من أجل طحـن الحبـوب وحولهـا معـدات الطحـن مـن مضـارب وأوان لجمـع الطحين، والثانية للطبيخ وفيها الأوانى المستعملة. والثالثـة للمـزاج السـريع فتعد فيها المشروبات الساخنة من غليان الأعشاب.

تقدير كبير للمرأة

وتقديس الجدة عند الهنود ليس المظهر الوحيد الذى يؤكد تقديرهم للمرأة، إنما يظهر ذلك فى أى علاقة تربط بينها وبين الرجل. فالخطبة عملية يسندها المجتمع الهندى للمرأة، فتختار رفيق حياتها بنفسها، فإذا ما استقر رأيها على ابن الحلال، تبلغ أسرتها وأسرته، ويترتب على ذلك بدء فترة خطبة لا تزيد على عشرة أيام، يتعرف خلالها كل طرف على الآخر، فإذا انتهت بالقبول، أقاموا الأفراح وبدأت الليالى الملاح و «هانح يا نج يا.. هنا.. هيه».. ولا أحد يسألنى عن معناها.. لكنها جملة يرقصون عليها فى كل المناسبات المهمة.

أما إذا شعر أحد الطرفين بأن العروس، أو العريس ليس فتاة، أو فتى الأحلام فحسب التقاليد الهندية العريقة، أنه فى مثل هذه الحالات يتعين على العريس أن يرجع إلى أسرته، ليخبرهم بأن الجوازة «اتفنيخت» وعليهم أن يبحثوا له عن عروس أخرى، أما العروس فتفكر فى عريس غيره ومرة أخرى تذهب إليه لتخطب وده.

والرجل الهندى له الحق فى الجمع بين زوجتين، تعيشان معا فى منزل واحد، ويكون هو بينهما « سى السيد » الذى تسعى كل منهما لاسترضائه والطلاق مباح، والهجر ممكن فى حالة عدم وجود أطفال فقط. فالأطفال تجعل الطلاق مستحيلا، فلا طلاق وخُلع وعلى الزوجين أن يقنعا بما قسم الخالق لهما «ويقعدوا يربّوا العيال».

لقد تأثر الهنود الحمر، بالتراث الصينى فى لغتهم، وبالإسلام فى احترامهم للمرأة وإباحة الجمع بين زوجتين كذلك تأثروا بالفراعنة فى بعض فنون الحفر، كما قلدوا الحيوانات فى بعض سلوكياتهم.

موت الأفيال

مشينا صفا واحدا وراء المرشد على «مدق» وسط الغابة المليئة بالأشجار ذات السيقان الرشيقة والأوراق الخضراء جدا، كان يصنع بكلتا يديه شكلا كرويا، يضعه فوق فمه، ويطلق أصواتا غريبة لا هى صراخ ولا غناء ولا نداء. بتعمل إيه يا أخينا؟! قال: أسعى لتطفيش ثعابين الغابة من الطريق، يعنى « يوسعوا لنا سكه »..ثعابين!! أنت بتقول ثعابين!! استر يا رب.. إننى أخاف من مجرد صورتها فى الكتب.. بعيدًا عن القرية أرض واسعة بجوارها مسطح فى شكل منضدة، مصنوعة من سيقان الأشجار مرفوعة عن مستوى الأرض بمترين يتمدد عليها هيكل لهندى متوفى. ومكتوب على المنضدة كلمة «أجو ساى» يعنى إيه؟!.. يعنى مقبرة!! يعنى أن الرجل الهندى ميت؟!. نعم لكننا وضعنا هيكلاً لرجل من أجل الشرح والتبسيط، ومن الذى أتى بالرجل إلى هنا؟ يقول المرشد:

«عندما يشعر الهندى بدنو أجله يأتى إلى «الأجوساى» لينام باعتباره فى عداد الموتى.. ويتم تغسيله بمعرفة زوجته التى يجب أن تبقى بجوار جثته لمدة ثلاثة أيام كاملة.

وهذه عادة عند أفيال الغابات، فإذا شعر الفيل بقرب الموت، اتجه إلى مكان بعيد عن الأنظار ونام ليموت.. ثم يتبعه سرب من الأفيال ليموتوا أو ليشهدوا عملية موت واحد من أبناء بنى الأفيال..

لكن.. وماذا تفعل الزوجة بعد الأيام الثلاثة؟.. تعود لأسرتها فلا تكلم الناس عشرة أيام، بعدها تتكلم لكن الحداد يستمر لمدة عام كامل، لا يتوقف الأهل والأقارب عن محاولاتهم فى التخفيف عنها بالهدايا.

ومن المناسب أن نذكر هنا أن منضدة الموت عند الهنود مأخوذة من المنضدة التى توضع على المركب الجنائزى التى كانت تنقل موتى الفراعنة من طيبة إلى البر الغربى ليدفن هناك وحول المنضدة إله التحنيط وحرس من حاملى القرابين، والآلات الموسيقية.

عرفوا العلاج النفسى !

تتكون القرية من عدة منازل كبيرة **Long Houses** يتبعها عدة خيام تبنى على طريقة المنزل لكنها صغيرة تستخدم فى أغراض مختلفة.

فخيمة «التجفيف» خاصة بتجفيف الأسماك التى تشطر نصفين وتوضع متجاورة لتتعرض لأشعة الشمس أمام الخيمة، أو لتحفظ داخلها من عوامل الطبيعة كالرياح والأتربة ومن الحيوانات الضالة.

وخيمة «العفاريت» مخصصة لطرد الأرواح الشريرة التى طالما عاكستهم وعكننت عليهم حياتهم، وهم يرجعون التوفيق وعدم التوفيق فى حياتهم إلى الأرواح. فهى إما شريرة عدوة للنجاح والتوفيق وإما خيرّة، فإذا حاول فنان هندى أن ينحت قناعا على جذع شجرة، فيمكن أن تسقط الشجرة ولا يتم لوحته، أى أن الأرواح الشريرة غير راضية على اللوحة وعلى الفنان، وهنا يجب حرق الشجرة والأرواح وما تم نحته من القناع، أما إذا تم عمل اللوحة وظهرت للوجود، فالمعنى أن الأرواح الخيّره قد باركتها وأحاطت الفنان بالإلهام والإبداع.

ولم تظهر العفاريت بعيدا عن الفن.. مع اعتقادهم أنها وراء كل توفيق فى الحياة. فهل معنى ذلك أن الفن فى كل العصور، وعند كل الثقافات، والحضارات موضع شك واختلاف؟!

وخيمة «البخور» لها معنى كبير، فالعلاج عند كل الشعوب البدائية كان يعتمد على أعشاب الأرض، وأيضا على العفاريت. لكن الهنود الحمر عرفوا العلاج النفسى الذى يعتمد عليه حاليا كثير من الأطباء، ويعالج أمراضًا كثيرة فى عصرنا.

وندخل خيمة العلاج النفسى أو خيمة البخور فنرى على جدرانها أقنعة منحوتة نحتا بارزا على جذوع الأشجار، وفى وسطها حفرة بها أوان صغيرة من الخشب مليئة بأنواع البخور، يطايره الطبيب أو الأخصائى بواسطة ريشة من ريش الطيور، فيطرد الأرواح الشريرة من جسم المريض فيشفى.

وتكعيبة العنب فى قرى الهنود الحمر تؤكد تأثير الأرواح فى حياتهم، فهم يقيمون نَصْبه من أشجار العنب الجافة فى وسطها قالبين من الطوب، يوقدون بينهما نارا، فيظهر أمام أعينهم الغيب، فيقرأون الطالع والبخت.

وكما يعالج البخور الأمراض التى يصاب بها الهنود، فإنها قادرة أيضا على الاحتفاظ بالأحلام داخل رؤوسهم وبألوانها الطبيعية، فإذا أراد الهندى أن يظل الحلم الذى رآه وهو نائم فى ذاكرته بعد أن يصحو ما عليه إلا أن يطاير البخور فى اتجاه رأسه قبل النوم مباشرة.

لعل أهم ما يميز العادات والتقاليد الهندية عن غيرها من تقاليد الشعوب البدائية والقديمة، هو شكل الموت الذى يأخذونه عن أسلوب الأفيال، والمرأة الأرملة التى يتوجب عليها ألا تكلم الناس عشرة أيام. وأيضا الأحلام الملونة والوصفة الغريبة التى تجعلهم يضمنون الاحتفاظ بهذه الأحلام لما بعد الاستيقاظ من النوم.

الثعبان الخالد !

المرشد السياحى الذى رافق زيارتنا للهنود الحمر لونه لا أسمر ولا أبيض، ولا هو خمرى ولا أشقر، إنه خليط بين السمار والبياض وليس أصفرا وفى شوارع دول كثيرة، شرقية أو غربية يمكن أن يقابلك دون أن يسترعى الانتباه، قلت له: أنت هندى أصلى وللا يرانى؟.. يعنى أنت هندى مخلص.. بيور يعنى؟! أجاب: نعم، إذن كنت «غلطان» على فهمى بأن الهنود الحمر أقرب إلى زنوج أمريكا، شفاههم غليظة، لون بشرتهم أسمر غطيس، وعيونهم يقول شكل للبيع، الهنود الحمر ليسوا إذن زنوج أمريكا، ولا هم الأفارقة سلالة كنتا كنتى الذين جلبهم الأمريكان الأوائل ليبنوا ويزرعوا بالسخرة، وأنتجوا مسلسلا أمريكيا طويلا يحكى بالتفاصيل المملة هذه الجريمة.

ولكنى رأيت فى الفرقة التى قدمت رقصة «الترحيب» على باب «المنزل الكبير» فتاة بيضاء فرنسية الملامح والبشرة فهل تزاوج الفرنسيون من الهنود؟! يعملوها.. ولهم فى هذا المجال سوابق نعرفها كلنا.

يتجمع السائحون عند باب المسرح، موظفة الشباك ضحكت علينا وقالت فى الداخل عروض راقصة بمبلغ كذا، ومدتها ٣٥ دقيقة، وأكدت أن هناك عروضًا ناطقة بالفرنسية، وأخرى بالإنجليزية. وفى الداخل عرفنا أن كل العروض بالفرنسية، طبعا العروض نفسها بلغة الهيورينز، إنما أقصد شرح العروض قبل تقديم الرقصات المختلفة، ورجعت إلى موظفة الشباك، وهى فرنسية، من كيبك فاعتذرت وقالت إن من يريد شرح العروض باللغة الإنجليزية، نقدم له دائما ترجمة لها عن الفرنسية، وناولتنى صفحتين للشرح باللغة الإنجليزية.

كوى .. كوى .. أتارو

باب المسرح، ولا باب زويله، قصير، عريض قديم جدا، دائرى من حافته العليا، على منتصفه تعويذة هندية صغيرة، فتح هندى الباب لتدخل، المسرح.. حجمه زى أوضة الفسحة فى بيت الواد عدوله ابن خالتى فى البلد، على جانبى المدخل أربعة صفوف خشبية مستديرة للجمهور. ارتفاعها لا يزيد على نصف متر، أما المسرح فارتفاعه لا يزيد على ثلاثين سنتيمترا وعرضه لا يزيد على مترين، مرسوم على أرضيته صورة كبيرة لثعبان أسطورى هندى بطول الأرضية. أما الخلفية فعلقوا عليها مجموعة من أدوات «البابيش» – للتذكرة، إنها الوسيلة التى اخترعها الهنود ليسيروا بمساعدتها على الجليد، وهى تشبه مضرب لعبة التنس يضعون كل رجل فى واحدة من «البابيش» ولها يد مدببة يتم غرسها فى الجليد أثناء السير.

على خلفية المسرح أيضا صور لثعابين أخرى ولقرون حيوانات الغزلان المتوحشة، وأقنعة محفورة على جذوع أشجار، وأشكال لطيور محنطة وجلود حيوانات.

الحفل الراقص فى اللغة الهندية يعنى «كوى.. كوى.. أتارو» وقبل أن تبدأ الرقصات، فإن الجمهور على اختلاف جنسياته كان فى حالة انبهار وترقب، فكلهم من السائحين وغالبيتهم يأتون إلى كيبك من منظمة دول الفرانكفونية، أى الناطقين بالفرنسية والمتعاطفين مع فرنسا وتابعها كيبك الكندية.

المذيع يتكلم الفرنسية لكن صوته أمريكى عريض. فيه عمق وفخامة قدم الرقصة الأولى، فدخل هندى وهندية فى هدوء شديد يقومان بدور تنقية

أرض المسرح والجو والجماهير من الأرواح الشريرة، ليتمكن الراقصون من أن يبدعوا كما يساعدوا الحضور على الاستمتاع.

خرج الراقصان لتبدأ الهمسات، وبعض الضحكات نصف المكتومة من الجمهور، تصور البعض أنه سوف يشاهد عرضا لفرقة البلشوى الروسية، أو راقصات فرقة باليه القاهرة، ثم فوجئوا بحركات بدائية، وأفكار بعيدة عن ثقافتهم المعاصرة، تصاعدت الضحكات والهمسات؛ وقد تكون الرائحة الخانقة فى المسرح سببا فى محاولة البعض الهروب منه أو على الأقل استعجال الراقصين لإنهاء العرض.

الثعبان الخطير

وشرح المذيع بالفرنسية الرقصة الأولى، وقرأت الترجمة بالإنجليزية. يقول:

رقصة «كابى كوبا» تعبر عن الثعبان الأسطورى الذى يحمل هذا الاسم وقد بعثه الخالق. وقد استعمل هذه الكلمة ولم يقل الله، أو ربنا – أثناء الحرب التى قامت بين الشعوب البيضاء «White People» والهيورونز، ففى كل ليلة عاصفة كان يختبئ الثعبان «كابى كوبا» فى باطن الأرض، فيصنع شلالا من الماء بطول ٣٥ كيلو مترا وعمق ٢٠ مترا، وتتكرر العواصف، فيتكرر الشلال فلما انتهت الحرب بين البيض والهيورنز ظهر أثر الثعبان الأسطورى فى شكل نهر كبير هو نهر «كابى كوبا» الموجود حاليا فى أراضى هنود «كيبك».

يشترك فى الرقصة ثلاثة من الرجال وفتاتان أحد الرجال يحمل القوس المستعمل فى الصيد وقد تم تزيين وتره بريش طيور، والثانى يحمل

الشخاشيخ والثالث يمسك بالدف، أما الفتاتان فتحملان على أكتافهما شالين من ألياف الأشجار المخطط.

الراقصون يطلقون صرخات غريبة مرتفعة وحامل القوس المزخرف يقوّس ظهره ويتموج على إيقاع اللحن مع دبدبة بالأرجل من الراقصين والراقصات على الإيقاع على لحن جملة غنائية جميلة يقولون فيها «هانجٍ.. يانجٍ يا هناليه..» أما المقام الموسيقى للحن الذى سمعته حسب «الموسيقى العصرية» فهو مقام بسيط، ويعتبر أساس الموسيقى فى العالم، أهل الصنعة يسمونه «دوماجير» أى «دوالكبير»، أما الإيقاع فيسميه الهنود الحمر «تام — تام» ونسميه فى الموسيقى الحديثة «ديسكو» وهو من إيقاع منتظم كإيقاع القلب.

الغناء المصاحب لرقصة الـ «كابى كوبا» رجالى جماعى. فيه شجن وبساطة، وهو قريب من طابع الأغانى التى اتجه إليها الشباب فى العقد الأخير من القرن العشرين، عندما كانوا يبدأون أغانيهم بصيحة يرد عليها الكورال ثم يبدأ اللحن الإيقاعى فى بساطة وبلا مصاحبة من الآلات الموسيقية إلا فى أضيق الحدود. ولا أدرى هل الألحان الهندية سابقة لعصرها أو ألحان الشباب كانت بدائية مثل ألحان الهنود الحمر؟

رقصة الفلاحين

يخرج الراقصون يتبع خروجهم فترة صمت تكسرها تعليقات الجمهور الساخرة، وهمساتهم التى لا يسكتها إلا صوت المذيع الكندى ليقدم الرقصة التالية.

يقول: الرقصة التالية «سيداتى سادتى» هى «رقصة الحبوب» ليست الحبوب المخدرة، ولا لمؤخذاة يقصد «حبوب الفياجرا» إنما الحبوب التى

تنتجها الأرض الزراعية و ٨٠٪ من نشاط الهنود الحمر يتركز فى الزراعة، والرقصة من أجل شكر الخالق والدعاء أن يبارك أراضيهم وينعم عليها بالخصوبة الدائمة.

فى هذه الرقصة يضع الرجال على وجوههم أقنعة من الحبوب التى وهبها لهم الخالق، وتحمل الفتيات أوانى مليئة أيضا بالحبوب ويربطن فى الذراع زهرات عباد الشمس، والرقصة عبارة عن حركة حيث تولين الفتيات وجوههن شطر السماء، ويتموج الرجال بأجسامهم.

والغناء المصاحب بصوت فردى يناجى الخالق فترد عليه الجماعة بمثل ما قال ويتخلل الغناء صرخات تطلقها الفتيات.

الإيقاع قد يطرأ عليه بعض التغيير فيبدأ بوحدات ثلاثية متتالية ليعطى إحساسا بإيقاع «الفالس» الشهير ورغم قصر مدة الرقصة فإن الإيقاع يتغير أكثر من مرة، من «الفالس» إلى «الديسكو» ثم «الفالس» مرة أخرى.

الرقص أخلاق

ورقصة «الغزلان»، تربوية، «تعليمية» يعلمون الهنود الحمر من خلالها الأطفال القيم التى يعتزون بها مثل السماح والعفو عند المقدرة.

فكثيرا ما تتصارع الحيوانات، وتنتهى المعارك بينها بهزيمة أحد الأطراف وربما بمقتله. لكن الهنود لاحظوا أن الحيوان المنتصر إذا انتهت المعركة فلا يسعى للانتقام من المنهزم بعد ذلك، ولا من أقاربه وعائلته، وهكذا يجب أن تكون سلوكيات الهنود الحمر، فإذا انتهت المعارك فالصفح والعفو لازمان.

وهذه واحدة أخرى من قيم المسلمين التى أرساها رسولهم الكريم «ومن غلب أو حكم.. ذل الخصوم وانتقم.. بسرعة القادرين.. إلا الحبيب النبى..

الطاهر الطيب.. كان السماح موكبه.. عفا وقال اذهبوا.. فأنتم الطلقاء.. سبحان من أدبه.. بأعظم الأخلاق».. والله يرحمك يا عبد السلام أمين.

وأعضاء الفرقة فى رقصة «الريش» يزينون الأذرع بريش الطيور الزاهى الجميل، ويرقصون بها فى أكثر من مناسبة اجتماعية مثل ميلاد طفل جديد للأسرة أو الفصيلة، أو زيارة ضيف من علية القوم من القرى الأخرى، ويدعون من خلالها الخالق أن يحمى الطفل والضيف، وبالمرة يحمى الأمم الهندية على سائر أراضيهم فى أمريكا الشمالية.

مد يدك بالسلام

فالهنود الحمر متدينون، يكثرون من الدعاء للخالق، ويحبون السلام ويرقصون من أجله، فالرقصة الأخيرة تجسد هذا المعنى، فيدخل كل أعضاء الفرقة بنين وبنات تجلس الفتيات على جلد حيوان وبجوارهن ضيوف العائلة، وفى المسرح يجلس بعض من الجمهور الذى وافق على الاشتراك بالرقص.. يظهر أحد الرجال حاملا «غليون» «بايب» طويل به مادة كالتبغ. فيمر على الضيوف، يقول لكل منهم ANA8 EHO، وهى كلمة تعنى «هل تشاركنا فى حب السلام»؟ فإذا أراد الضيف المشاركة رد عليه بنفس التحية ويردد وراءه نفس الكلمة الهندية، أى أنه قبل تحية رئيس القرية، فالفرقة الراقصة تعبر فى رقصتهم عن رئيس قريتهم مطلوب الصمت الكامل، فالرقصة وقورة جدا روحها دينية وتسمع فى صوت الكورال نغمات التراتيل الكنائسية اليونانية بالذات. يركع أعضاء الفرقة على ركبهم، ثم يعود الراقص لينثر دخان الغليون على الراقصات فيمسحن بالدخان وجوههن، إنه دخان السلام يلف أهل السلام الذى يحبونه ويرقصون من أجله، رقصة لا تقل خشوعا عن رقصتهم للثعبان الذى صنع

لهم الثعبان الخالد «كابى كوبا» واهب الخلد للهنود الحمر، ثم ينثر دخانه على الجمهور، ويعبئ صالة المسرح.. ليسود السلام الذى لم يعرفوه منذ أتت إلى بلادهم جحافل الشعوب البيضاء.

حيوانات لها وافر الاحترام !

لا نعرف عن الأمريكان ، خفة الدم، ولو كانوا أولاد نكتة، لما سلم أهل كندا أقرب الجيران، من نكتهم، فهم دائمو التهكم عليهم، فإذا علم أمريكي أن صديقا له ينوى السفر إلى كندا يسأله بسخرية: رايح تصطاد؟! يعني كندا بالنسبة للأمريكان مجرد براري وحيوانات للصيد، مع أنها تقدر العلم ولها مساهمات بارزة فيما وصل إليه العالم من تقدم علمي.

والمقاطعات الكندية فيها مساحات واسعة من البراري تساعد على الصيد، ومقاطعة كيبك مثلا فيها ٦٧ ألف كيلومتر من البراري من مساحتها الكلية التي لا تزيد على ٩ آلاف كيلومترا مربعا. مليئة بالأنهار والبحيرات والمرتفعات، ومنها أنواع نادرة من الطيور والحيوانات البرية والكندية بصفة خاصة مثل الغزال الوحشي ذو القرون المقلطحة على شكل إريال التليفزيون، ومن أنواعه الغزال ذات الذيول البيضاء الطويلة.

وكان الإنسان الهندى يرقص للخالق تضرعا كي يحميه من وحشية بعض أنواع الغزلان. واتخذ (متحف الميبل) المتحف القومي الكندى من شكل القرون المقلطحة للغزال رمزا، أما (الميبل) فهو اسم الشجر الذى ينتشر فى الأراضى الكندية حتى اعتبروه أهلها شجرا قوميا واتخذوا من شكل أوراقه رسما متميزا لعلم الدولة ويختلف عن العلم الخاص بكل مقاطعة من المقاطعات الكندية.

فى البراري الكندية بصفة عامة، وكيبك بصفة خاصة يمارس الصيادون نشاطهم فى صيد أنواع الدببة السوداء، وهى هواية مغرية تدر

دخلا لصاحبها ولا تجارة للمخدرات لأن بعض الجهات الصينية تستغل الدببة في استخراج مادة (الصفراء) التي تدخل ضمن أنواع العلاج الشعبي الصيني كما تباع كمادة منشطة، كما تدخل في صناعة الخمور خاصة في دول آسيا. ولذلك فإن للجمعية العالمية للحيوانات ومقرها مدينة لندن، حذرت من أعمال الصيد التي تهدد بانقراض الدببة بكل أنواعها وألوانها، وأكد تقرير الجمعية أن الدببة قد تختفي تماثيا من العالم لكن الصيادين لهم رأي آخر، فصيد الدببة تجارة تقدر قيمتها بالملايين. كما أن إدارة مقاطعة كيبك تساعدهم على الصيد السهل الممتع، فتبقى لهم الكبائن من أجل إقامة طويلة ومريحة وتساعدهم على توفير غذائهم من صيد الطيور والأرانب البرية، لتأتي عملية الصيد متمشية مع الأسلوب الأوروبي الذي يرفع شعار «دبر أكلك ونومتك» وهو يختلف مع الأسلوب الأمريكي الذي يعتمد بشكل أساسي على مرشد يقدم خريطة المنطقة ويحدد اتجاه الريح، ويقدم للصياد الخدمات المختلفة.

بارتي مع الكلاب الفاخرة!

وفي البراري، تقوم الكلاب بمهمة خاصة، فهي تمثل الدور الذي تقوم به مع الهنود الحمر عندما يستخدمونها في جر العربات فوق مخرات الجليد وفي الممرات الوعرة بين زئير الرياح وصمت الجبال.

والكلاب ليست ضالة وليس لها أن تكون. فهم يحتفظون بها، ويدعون السائحين للرقص معها وتناول العشاء على شرفها، وقد أنشأت سلطات المقاطعة ناديا خاصا لهواة تسيير العربات التي تجرها الكلاب، عضويته للهواة والمحترفين والمرشدين الذين يعلمون الأعضاء الجدد، ويقدم النادي مساعداته لهم بنصب الخيام على المخرات الجليدية وبناء الكبائن حولها، فتح النادي مدرسة لتعليم الأعضاء فن قيادة الكلاب.

وتعلن شركات السياحة عن رحلات كثيرة لاستعمال العربات التى تجرها الكلاب، رحلة تستغرق نصف يوم. وأخرى تستغرق يوما كاملا، وثالثة يومين على أن تكون الإقامة فى قرية هندية، والأهم أن إدارة الشركات تغريهم بأنها تقيم لهم سهرات فاخرة وتعدهم بأن تحضرها الكلاب المحترمة (الخمس نجوم) التى تشارك فى جر عرباتهم على الجليد على نهر (كابى كوبا) الكندى القديم أطول الأنهار هناك ونهر (هاريكانا) الذى حفره شعب (الألجلونكوين) منذ ستة آلاف سنة تقريبًا.

سياحة جليلة

فشركات السياحة نجحت فى استغلال التاريخ لتنشيط أعمالها وملء خزائنها. كما استغلت طبيعة الأرض والمناخ أيضا فأكثرت من بناء ملاعب التزحلق على الجليد وعرضت فى محلاتها التجارية كل ما يلزم هواة هذه الرياضة الخاصة من البالطو للحذاء الخاص إلى القفاز والنظارة وكشاف الرأس لمن يريد التزحلق ليلا.

وفى كيبك سياحة من نوع جليل وعظيم هو السياحة الدينية. فأهل (فرنسا الجديدة) أو مدينة الفرانكفون وكلها أسماء قديمة للمدينة، ينتمون إلى فرنسا الأوروبية المعروفة باعتزازها بمسيحيتها وغرامها ببناء الكنائس الضخمة والفخمة.

فى كيبك كنيسة لكل شارع، وكتدرائية لكل حى، أما كنيسة (سانت أنّا بوبريه) فهى تاريخية بنيت سنة ١٦٥٨ يعنى هى أقدم كنائس أمريكا الشمالية، تقع بين البحر والجبال، فإذا كان عدد السائحين يبلغ سنويا ستة ملايين سائح للمدينة فإن من بينهم مليونا ونصف المليون يذهبون إليها للحج فى كنيسة (سانت أنّا بوبريه). ولما أتى عليها حريق هائل فدمرها

عام ١٩٢٢ أعيد إليها بهاؤها وجمالها ، وعادت العراقة لها سنة ١٩٤٧. الآن تقدم خدماتها لمسيحيى العالم من بركات وصلوات إلى مساعدات عينية لغير القادرين وأصحاب الظروف الخاصة.

البكاء على القدس

تقع الكنيسة فى حى يحمل اسمها حى (سانت أنا بوبريه) ويكمل جلاله وهيبته مبنى أثرى دائرى هو (سيكلوراما القدس) وهو أكبر بانوراما فى العالم تصنعها لوحات فنان. المبنى يرتفع لـ ١٤ مترا عن سطح الأرض ويبلغ نصف قطر دائرته ١١٠ أمتار. بدأ بناؤها عام ١٨٧٨ فى مدينة ميونخ الألمانية وتواصل البناء فى ثلاث سنوات ثم انتقل ليستقر فى مدينة كيبك لتنفرد بها على سائر المدن الكندية بل مدن العالم كله.

و(السيكلوراما) مفتوحة للزائرين من أول مايو إلى نهاية أكتوبر كل عام، فى هذه الفترة العروض مستمرة ليلا ونهارا. بالضوء والصوت وبكل لغات العالم ومنها العربية.

جلسنا فى وسط السيكلوراما ولوحة صلب المسيح أمامنا. وعلى اليسار جانب من قرية القدس وعلى اليمين الجانب الأكبر منها. وتلتقط العيون صورة الجبال الشاهقة تحت السماء الحزينة فى الفضاء الواسع، القدس كلها تحت ضوء شديد يرسم مناخا غامضا يترك انطباعا بالكآبة والوحشة والحزن، على (صلب المسيح) فالعين ترى أمامها فى (السيكلوراما) ما يمثل ١٥٤٠ مترا من الأراضى المقدسة الحقيقية.

والسؤال هل مدينة القدس ما زالت مقدسة عند الفرنسيين الذين صمموا (ماكيت) مبهرا لها، والألمان الذين تم تنفيذه على أراضيهم، وأهل كيبك

الذين يفخرون بانفرادهم بالمبنى الدائرى الدقيق، ومليون وتصف مليون سائح يرونها فى كل عام، هل يشعر كل هؤلاء بمعاناة القس الآن!؟

يعكس وسط مدينة كيبك تاريخها بالتماثيل الضخمة لأبطال الحروب وتجوم الفناء والتاريخ. وميادينها تحكى المشوار من زمن القلاع والمنجنيق إلى عصر الإلكترونيات.

غرامة فى القلعة

وبالرغم من أن كندا دولة تقع على مساحة قارة كاملة إلا أن سائق السيارة إذا عثر على مكان لانتظار سيارته فإنه يكون مقبلا على غرامة مالية كبيرة، وفى وسط كيبك (ركنا) السيارة لنتسلق قلعتها التاريخية. بعد أن عثرنا على مكان (لُقطة) ونادر. وبعد العودة وجدناها مزينة بمخالفة من رجال المرور، وكانوا ما زالوا يواصلون مهمتهم فى نفس الشارع، سألناهم بدهشة: نحن تركناها فى مكان انتظار! قالوا: إنه انتظار لغيركم. دققوا.. سوف تقرأون بخط صغير على لافتة قريبة من مكان السيارة أن المكان مخصص لسكان البيت المجاور!!

وبقدر ما آلمنا المبلغ الذى دفعناه، بقدر ما هزت الفكرة رؤوسنا ففى بلادنا ناطحات سحاب وتحتل الأدوار الأرضية منها محلات تجارية ومطاعم جماهيرية ومقاهٍ ومدارس زبائنها لا يتركون محلا لسيارات سكان المنطقة، وغالبا ما تكون سيارات الزبائن ضيفة على الأماكن التى تشغلها لمدد زمنية قليلة لكنها تضيع الفرصة على سيارات السكان، فلماذا لا تنقل إدارة المرور فكرة حماية السكان تحت بيوتهم من تجربة كيبك!

قلعة المدينة تمثل الواجهة الشرقية بناها الإنجليز عام ١٨٢٠ وتواصل البناء فى ثلاثين عامًا. بنيت فى شكل نجمة ترتفع عن مستوى الأرض

بعشرات الأمتار. تحتوى (متحف الميدل) الذى يعرض الأدوات التى استخدمت فى بناء القلعة. ولها تقاليد منها ما هو متبع فى كل دول الكومنولث التى تحكمها أو كانت تحكمها بريطانيا العظمى مثل عملية إنزال علم البلاد كل مساء وتتم فى مشهد عسكرى مهيب وقور، حيث ينزل العلم على صوت الإيقاعات فيتم ربطه إلى صباح اليوم التالى فيرفع فى مشهد عسكرى جديد.

ومن التقاليد الإنجليزية فى قصور الحكام أو أمام مقر البرلمانات أو القلاع عملية تغيير الحرس. من قصر باكنجهام بالعاصمة الإنجليزية لندن، يتم ذلك فى القصر الملكى أمام الجماهير التى تحتشد خارج أسوار القصر للفرجة على المشهد الرائع. ويحدث فى المقاطعات الكندية خاصة فى عاصمة الدولة مدينة (أتوا) أمام مقر البرلمان الفيدرالى.

أما عملية تغيير الحرس فى كيبك فهى مختلفة ولا تنقصها الطرافة والابهار، فأفراد الحرس معظمهم من الجنس اللطيف مع أن هذه العملية العسكرية يصاحبها ضرب قوى بالأرجل على الأرض أثناء عملية (التمام) العسكرية، وعند الضغط على السلاح المرافق، وعملية (التعظيم سلام). سألت واحدة من الحرس بعد أن انتهت من مهمتها: هل أنت سعيدة فى عملك؟ قالت: نعم.. يكفى أننى أقوم بمهمة قومية!!، قلت: لكنك تطلقين صرخة قوية لا نسمعها إلا من الرجال عادة. قالت: نحن نتدرب عليها. ولم يعد هناك فرق بين الرجال والنساء فى أشياء كثيرة فى حياتنا.

الماعز العسكرية

لكن الشىء الأكثر طرافة فى عملية تغيير الحرس أمام قلعة كيبك هو الماعز المصاحبة للجنود أثناء قيامهم بمهمتهم وهى ظاهرة تنفرد بها المدينة

دون كل المدن التى تتبع التقاليد الإنجليزية أو الأمريكية فى عملية تغيير الحرس. إنها الماعز العسكرية.

سألت عن سبب وجودها مع الحرس. قال لى أحد أفراده: الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا – كانت لها السيادة على كندا وما زالت تدعى لحضور العيد القومى للبلاد– كانت قد أهدت ماعزا لحاكم المدينة. ومن باب الاعتزاز بالهدية أضيفت الماعز للعرض ثم استمر التقليد.

اكتفيت برد فرد الحرس على أمل أن أجد فى الكتب والنشرات، بعض التفاصيل وصدمت.. فلم أجد إضافة. حاولت الاتصال بعشرات المصريين، الحاصلين على الجنسية الكندية بعضهم لم يسمع عن الماعز والباقون لم يعرفوا السبب لوجودها. اتصلت على (وب سايت) خاص بالقلعة ولا حياة لمن أنادى!! فاتصلت بالملحق الثقافى لقارة كندا بالقاهرة الذى دلنى على (وب سايت) خاص فقرأت عليه:

يرجع التاريخ إلى عام ١٨٨٤ عندما أهدى شاه بيرز للملكة فيكتوريا زوجا من الماعز النادر والذى ترجع أصول سلالته إلى إقليم التبت فى الصين، وهو ما يفتخر به الأهالى هناك. الملكة أودعت الماعزين النادرتين حديقة حيوان لندن ليصبح ذلك اليوم يوما قوميا للحيوانات.

وكان الجيش البريطانى قد استعان بهذا النوع من الماعز كتعويذة للنصر، أو «باروكة» يتفاءل بها القادة أو «حظاظه» أثناء حملاتهم العسكرية. وحضرت واحدة منها حرب (هل بنكر) ١٧٧٥ أثناء ما عرف بحرب الاستقلال فى أمريكا وظل التقليد أو التفاؤل معمولاً به أثناء الحملات العسكرية البريطانية التى قامت فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٥ وكانوا يسمون الماعز المرافق (باتيس) **Batisse**.

وقدم الحاكم العام لكندا (إنجليزى الجنسية) ماعزا لرئيس القلعة فى أول أكتوبر ١٩٥٥، إنها MasonryI التى شاركت فى كل العمليات الاحتفالية التى شاركت فيها كتيبة حرس القلعة، ولوحظ اهتمام الزائرين والسائحين وحرصهم على مشاهدة عملية تغيير الحرس أمام القلعة يوميا، وبهرهم وأعجبهم سلوك الماعز فهو مهذب ورقيق.

وقد بدأ هذا التقليد وهو اشراك الماعز أو (الباتيس) فى عرض تغيير الحرس فى قلعة كيبك وقد شاركت ثمان منها فبعد أن ماتت الأولى Masonry I بعد مرض دام عدة أسابيع، وبالتحديد يوم ٢٥ فبراير ١٩٦٤ طلبوا واحدة أخرى من حديقة لندن فوصلت Masonry II يوم ١٥ أغسطس ١٩٦٤ واستمرت فى الخدمة العسكرية حتى ماتت فى ٧ أبريل ١٩٧٠. ورأت إدارة الحرس أن تختصر الطريق وتطلب من حديقة لندن زوجا منها ذكرا وأنثى ليتم التزاوج والتناسل تحت أنظارهم فى حديقة حيوان كيبك فى حى شارلسبورج وتم لهم ما أرادوا. فكانت Masonry III التى ماتت ٤ أبريل ١٩٧٨ والرابعة، والخامسة، والسادسة والسابعة والثامنة التى دخلت الخدمة ٨ سبتمبر ١٩٩٩.

●●●

فى بلاد الدنيا الغزال رقيق ناعم، وفى مصر الغزال إسكندرانى (متدلع). وفى كندا — يا ساتر — الغزال وحشى له قرون زى الدِّش. وعندنا (ديل الكلب ما يتعدل لو علقوا فيه قالب) وفى كندا الكلاب خمس نجوم. وعندنا حسن أبو على سرق المعزة، وهناك لها هيبة.

الحيوانات عندنا.. أى كلام.. وعندهم لها وافر الاحترام.

منوّرة .. بأهلنا !

مونتريال ليست مدينة سياحية، فإذا قصدتها فى غير شهور الصيف فليس بها إلا متحف « مونتريال » و « القرية الأوليمبية ».. أما مدينة الملاهى بها واسمها « لاروند » فموجود فى بعض البلاد العربية ما هو أحسن وأقدر وأشمل.

والمتحف فيه فنون يدوية مستوحاة من فن الهنود الحمر، وقريب الشبه من الفنون المماثلة للشعوب الأصلية فى استراليا ونيوزيلنده، وجزر المحيط الهادئ.

أما القرية الأوليمبية، فبالرغم من أنه قد تم بناؤها فى السبعينيات من القرن العشرين بمناسبة إقامة دورة الألعاب الأوليمبية فى مونتريال إلا أنها مازالت مزارًا للسائحين، يقصدونها من كل فج عميق، فهى كاملة المنشآت، فيها ١٨ مسرحًا حديثًا وعدة قاعات للحفلات والاجتماعات والندوات. ومساحات خضراء واسعة وملاعب تقام عليها مباريات كأس مونتريال فى لعبة البسبول. وتقوم مدارس المدينة برحلات ليقضى التلاميذ بها يوما رياضيًا كاملاً.

أما برج القرية فهو أعظم ما بها، شكله غريب، له قبة غير تقليدية، ويبلغ ارتفاعها ٢٧٠ مترًا ومزود بمصعد زجاجى يصل لقمته فى دقيقتين. فيرى السائح كل المدينة على بعد ٨٠ كيلومترا فى الاتجاهات الأربعة.

لكن مونتريال مدينة للعلم والتعليم، فعدد سكانها لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة، وفيها أربع جامعات مشهورة هى « مونتريال » و « يوكام »

و« ماكجل » و« كونكورديا » .. والأصل فى الجامعات الأربع هو التدريس باللغة الفرنسية، وكلها تفتح الأذرع لأبناء منظمة الدول الفرانكفونية. ولكن جامعتى « كونكورديا » و« ماكجل » فتحتا مؤخرًا أقسامًا للتدريس باللغة الإنجليزية. وتخصص الدولة ٣٠ مليون دولار كندى من أجل المنح الدراسية للأجانب بجامعاتها.

ذهبت إلى مقر جامعة كونكورديا مع سالى ابنة خالة ابنتى، وهى طالبة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، تخاطبت مع إدارة كونكورديا عن طريق البريد الإلكترونى، فوافقت على إعطائها منحة دراسية، مبانى الجامعة متفرقة، فالمرشدون كلٌ فى فيللا منفصلة، وإدارة الشئون المالية لها مبنى ملحق به سوق لبيع الملابس ومستلزمات الدراسة بأسعار منخفضة للطلبة. ومبنى شئون الطلاب قرأت على أحد حوائطه شعارات إسلامية، وشاهدت الطلبة يستخرجون علب البيرة من ماكينات البيع الأتوماتيكية، وقاعات الدراسة صغيرة لا تستوعب الواحدة أكثر من ٢٤ طالبا. والمحاضرات متباعدة فيمكن أن تكون واحدة فى المقر الرئيسى للجامعة فى وسط المدينة، والتى تليها تبعد بمسافة زمنية طويلة لأنها فى مبنى يستغرق الوصول إليه ٢٥ دقيقة بأوتوبيس الجامعة الذى يقوم بدورات دائمة بين كل دورة وأخرى ربع ساعة.

أما جامعة « ماكجل » فلها مقر فخم له أسوار عالية وفيها مساحات خضراء، وحضرت فيها واحدة من الحفلات التى أقامها الطلبة بمناسبة افتتاح العام الدراسى الجديد، ودخلت مبنى كلية الفنون وهو تحفة معمارية لا ينقصها التنظيم والجمال وكذلك مبنى كلية الهندسة.

وتصدر كل جامعة عدة مجلات ونشرات تعرض نشاطاتها العلمية والفنية، وتكتب أخبار هيئة التدريس والطلبة أثناء العام الدراسى وفى العطلة الصيفية.

وفى كندا طلبة كثيرون غير « سالى » يتمتعون بمنح دراسية من جامعات كندية، بالإضافة إلى عدد أكبر ترسلهم الدولة للحصول على درجات علمية عالية مثل الدكتوراه.

ويبلغ عدد الطلاب المصريين فى البعثة المصرية عام ٢٠٠٢ فى كندا ١٣٧ طالبا يرعاهم مكتبنا الثقافى والتعليمى هناك .

مكتب السيد الناظر

ويعيش معظم سكان مونتريال حول البحيرات فى منتجعات بعيدة عن وسط المدينة التى يتزاحم فيها الطلبة والمتسوقون وأعضاء البعثات الدبلوماسية، فوسط المدينة تتوازى فيها الشوارع وتتعامد بانتظام، أما البنايات فهى أبراج عملاقة مبهرة. فى أحد هذه الأبراج يقع المكتب الثقافى والتعليمى المصرى. وكنت التقيت مع مستشارنا الثقافى فى مقر جامعة كونكورديا الدكتور أحمد بهاء الدين خيرى، وعزمنى على الشاى، وبالمرة للاطلاع على المقر، والنشاط.

المكتب فى الدور التاسع عشر، يطل على مونتريال كلها تراها من الشباك، وإن لم تنظر فأنت فى ركن من مكتبة الإسكندرية.. الكتب المصرية حديثة. والصحف الصادرة خلال الأسبوع. الحائط مزين بصور أبى الهول والأهرامات.. والكرم زايد.

ماذا يفعل د. خيرى؟ وما هى المهام التى يقوم بها مكتبنا الثقافى والتعليمى؟ سؤالان وجهتهما للسيد الناظر أو مدير الإدارة التعليمية التى ينتمى إليها أهلنا فى كندا.. قال:

يجتمع المكتب بالمشرفين على الدارسين المصريين بكل جامعة على حدة، وكذلك بالمصريين الأساتذة فى هذه الجامعات للتعرف على مدى

تقدم الدارسين، كما يلتقى باتحاد الدارسين المصريين فى مدينة «أتوا» عاصمة كندا، ويحضر اجتماعات نصف سنوية لاتحاد الدارسين المصريين بالولايات المتحدة الأمريكية، كذلك العمل على حل المشكلات التى تواجه الدارسين المصريين، مثل الطالب الذى تعرض لتحرشات من زملائه فى جامعة«جولف»، فاتصلنا بمكتب حقوق الإنسان بالكلية التى يدرس فيها، وتم وقف التحرشات ونقل الطالب إلى مقر إقامة قريب من موقع كليته وانتداب محام عن طريق مكتب حقوق الإنسان بالجامعة لمواجهة الادعاءات التى نسبت إلى أسرة الطالب، وبناء على طلب مسبق من الطالب تم تغيير محل دراسته من كندا إلى أمريكا.

مشكلة أخرى، طالب لم يتمكن من إجراء أبحاثه فى جامعة «ماكجل» بمونتريال لعدم وجود العينة اللازمة لإجراء البحوث الطبية اللازمة، وقد قام المكتب بمراسلة عدة جامعات كندية وأمريكية لتوفير فرصة تسجيل للدراسة بجامعة أخرى.

مشكلة ثالثة.. طالب حصل على تأشيرة دخول زائر إلى كندا ولم يتم تغييرها من قبل ضباط الهجرة فى مطار تورنتو كما يقضى القانون الكندى، إلى تأشيرة دارس، فرفضت جامعة «وندسور» التى التحق بها أن يحصل الطالب على المنحة المالية المقدمة منها، فاتصل المكتب بسفيرة مصر فى كندا الدكتورة سلامة شاكر التى اتصلت بممثلى البرلمان فى المقاطعة التى يدرس بها الطالب وتم تغيير التأشيرة.

نشاط آخر، فقد دعم المكتب نشاط طالب اشترك فى بطولة العالم للجرى التى أجريت عام ٢٠٠٢ برفع بدل انتقال يومى له وبعض الهدايا التذكارية لتوزيعها على بعض المشاركين والمدربين الأجانب.

ويقوم مكتب المستشار الثقافى والتعليمى بحل مشكلات الجمارك للعائدين إلى مصر وتحريك رواتب المبعوثين ومشاكل التأمين الصحى للدارسين، وإطلاعهم على المواقف الرسمية المصرية، والرد على استفسار اتحاد الطلاب الدارسين فى أمريكا الشمالية الخاصة، وصرف قيمة تذاكر الطيران وتكاليف طبع النسخ الأخيرة من الرسالات العلمية لأعضاء البعثات الحكومية.

ويواجه مكتبنا الثقافى فى مونتريال مشكلة خاصة بالدارسين المصريين فى مقاطعة كيبك، فجامعة «لافال» تطلب من الطلبة الدارسين دراسة اللغة الفرنسية، وتطلب منهم لقاء ذلك مصاريف باهظة، والخريجون فيها ليسوا على المستوى المطلوب.

أما المشكلة الطريفة التى لا يجد المكتب حلاً لها فهى حكاية المنحة. فالدولة الكندية تخصص ٣٠ مليون دولار للمنح الدراسية، لكنها تطلب منهم أن يدفعوا المصاريف كاملة فى بداية العام الدراسى وتدفعها مصر، وبعد أسابيع من بدء الدراسة ترد الجامعات الكندية المصاريف للطلبة المتمتعين بالمنحة، فيأخذوها مع أنهم لم يدفعوها من قبل إنما دفعها المكتب الثقافى والتعليمى.

علاقات تعليمية وثقافية

وللمكتب الثقافى والتعليمى دور لدعم التعاون بين الجامعات المصرية والهيئات الثقافية فيها مع مثيلاتها فى كندا، فقد قام المكتب بمخاطبة جامعتى القاهرة والمنيا بخصوص التعاون مع جمعية دراسات مصر القديمة بمونتريال فى مجالات صيانة الآثار المصرية، ودعم البحوث العلمية المتعلقة بالحضارة المصرية القديمة.

كذلك قام بمطالبة مسئولى وزارة العلاقات الخارجية بحكومة كيبك بزيادة عدد المنح المقدمة لأعضاء الدارسين المصريين من المصروفات الدولية وزيادة عدد هذه المنح، وينقل المكتب رغبة بعض الجامعات المصرية فى التعاون مع الجامعات الكندية.

وعلى الصعيد الثقافى يقوم المكتب بمناقشة دائمة من أجل تطوير العلاقات المصرية، وجامعة «مونتريال» وإمكانية تبنى الأخيرة مشروع إقامة أسبوع ثقافى مصرى بمقاطعة كيبك، على أن يتكرر فى جامعات أخرى هناك مثل « ووترلو » و« ماكجل » .

ويقوم المكتب بدور كبير فى مجال زيارة فرق فنية ووفود كندية لمصر، منها ما يتم للاشتراك فى مهرجان المسرح التجريبى. واشراك نقاد كنديين فى بينالى الإسكندرية الدولى. وزيارات لمعرض القاهرة الدولى للكتاب، وكذلك مشاركات مصر فى مهرجانات كندا السينمائية فى « مونتريال » و« إبيتيبى » ومهرجان السينما الأفريقية فى مونتريال، الذى تقيمه مؤسسة « نافذة على إفريقيا » الكندية.

ويقيم المكتب أسابيع ثقافية مصرية فى المدارس الثانوية هناك، ويعد برنامجًا دراسيًا عن المصريات، وندوات مع جمعية « دراسات مصر القديمة » .

أنشأ المكتب موقعا على الإنترنت بعنوان « مصر الخالدة » صممه أستاذ بجامعة مونتريال عضو الجمعية الكندية لدراسات مصر القديمة، يشمل معلومات عامة عن مصر القديمة وينشر صورًا تعكس ملامح الحياة فيها، وبرنامجًا مبسطًا للتعرف على اللغة الهيروغليفية وبرنامجًا دراسيًا مكتملاً عن مصر القديمة.

ويقوم مكتبنا الثقافى والتعليمى فى مونتريال بمهام يقوم بها كل مكتب مماثل فى عواصم الدنيا، فيساهم فى تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها، ويتواصل مع صحافة وإعلام كندا والحكومة الكندية، ويعمل على التنسيق والتعاون مع مجلس الكنائس الكندى للاستفادة من تجاربه فى مجال أطفال الشوارع وإعالة المحتاجين وإسكانهم، وإعداد مواد سينمائية وإعلامية بالتنسيق مع الجمعيات المسيحية النشطة ضد الجمعيات الصهيونية، ويتعامل إعلاميا لتغيير النظرة المعادية للعرب والمسلمين فى الإعلام الغربى.

صوت المصريين

انتظارًا للشاى عبثت بيدى فى الكتب والأوراق على منضدة وسط الغرفة، التقطت نسختين من مجلة يرأس مجلس إدارتها وتحريرها جورج سعد اسمها « مصر والعالم العربى فى كندا » واتخذ لها شعارا من وحى الجملة الخالدة للزعيم مصطفى كامل هى « لو لم أكن مصريًا عربيا، لوددت أن أكون » . قرأت فى العدديين موضوعات إخبارية عن مصر وحكومتها، وعن نشاط المسئولين المصريين عند زياراتهم لمونتريال.

يمتلك جورج سعد محطة تلفزيونية تبث إرسالها بعنوان « من مصر إلى مونتريال » صباح كل خميس وظهر كل سبت ومساء كل أحد، ويعتبرها مالكها صوت أقباط مصر فى كندا، ويعرض من خلالها بعض المسلسلات المصرية القديمة عرضتها التليفزيونات العربية قبلها بسنوات ومنها « ليالى الحلمية » و« لن أعيش فى جلباب أبى » .

أما راديو الشرق الأوسط بكندا فيخصص ساعة مساء كل اثنين لتغطية أخبار المصريين والجاليات العربية هناك تحت عنوان « مصر والعالم العربى » .

وبعض المبعوثين المصريين لبلاد العالم يقررون البقاء أينما درسوا ويتسلقون سلم النجاح، فيصل بعضهم إلى مراكز مشرفة فى الجامعات.

وقد أعد مكتبنا الثقافى فى مونتريال دليلاً للأساتذة المصريين بالجامعات الكندية فى مايو ٢٠٠١، وجاء فى كلمة المقدمة للدليل أن المكتب لم يتمكن من الحصول على بيانات لكل الأساتذة؛ إنما حصل على بيانات عن ١٠٢ منهم، على وعد أن يغطى العدد كله فى وقت لاحق.

أما الأساتذة المصريون فى كندا، فمنهم ٧٧ أستاذًا فى علوم الهندسة و ١٤ فى الطب وأستاذان فى الزراعة وأربعة فى العلوم الاجتماعية وأستاذ فى الآداب، وخمسة فى العلوم، ووصل اثنان من أستاذة الهندسة إلى مركز نائب رئيس جامعة كما وصل خمسة إلى مركز عميد كلية، وخاصة الهندسة، كما وصل ثلاثة إلى مركز وكيل كلية ومثلهم إلى مركز رئيس قسم.

وبعثاتنا العلمية كثيرة فى الخارج. وعلماؤنا هناك تضرب لهم مجتمعاتهم الجديدة السلام، وكان محمد على، الجندى الألبانى الأصل ومؤسس النهضة الحديثة فى مصر، أول من اعتمد على البعثات العلمية وبدأ أول خطوة بإرسال ١٢٠ شابا إلى فرنسا منهم المحامى والمهندس والأديب والمفكر وحتى الإسكافى الذى تعلم هناك تجويد صناعة الأحذية وإصلاحها، وعادوا جميعا بعد خمس سنوات ليضعوا بصماتهم فى مجالاتهم المتخصصة، فأثروا بشكل إيجابى فى بناء البنية الفوقية للإنسان المصرى والتحتية للبلاد، ونملك الآن ثروات بشرية عظيمة نتركها مبعثرة حول العالم ولا نستفيد منها، فلماذا لا نجعل مصر منورّة بأهلها ونتفرج على دول كثيرة ومنها كندا وهى منوّرة بأهلنا ؟!

صورة حلوة.. وصورة مُرّة !

الأفلام السينمائية الكثيرة التى تستعد استوديوهات هوليود لإنتاجها عن حادث الثلاثاء الدامى، أى تفجير برجى مركز التجارة العالمى بنيويورك، يمكن أن يتم تصوير مشاهدها الخارجية فى كندا، وعلى وجه الخصوص فى مدينة تورنتو أقرب المدن الكندية للحدود مع أمريكا. والسينمائيون يذهبون إلى هناك ليصوروا أفلامهم التى تحتاج لتصوير شوارع أمريكية، فهناك التصوير أرخص، والشوارع أنظف والناس أكثر أمانة، وحتى لو أرادت السينما تصوير مناظر طبيعية لبعض المدن مثل نيويورك فهى تستعين باكسسوارات تجسد مناظر أكوام القمامة، وهمجية شعب نيويورك.

وأهل تورنتو سعداء بذلك، ويحكون أن فريقا للتصوير السينمائى جاء من أمريكا للعمل فى شوارع تورنتو فاضطر المخرج أن يستخدم صفائح القمامة، والحوائط الملينة بالنقوش الرديئة، والسيارات محطمة، حتى يضمن أن تأتى الصورة طبق الأصل من شوارع نيويورك. يقولون إن فى إحدى المرات، وعندما توقف التصوير فى فترة « بريك » ، عاد المخرج فلم يجد « الاكسسوارات » التى وضعها لزوم التصوير فى شارع بالمدينة. وعلم أن الأهالى اتصلوا بوحدة جمع القمامة ببلدية تورنتو الحريصون على نظافة مدينتهم لتسرع فى إعادة الشارع إلى وضعه الطبيعى، مع أن المدينة تعانى من الزحام فهى أكبر المدن الكندية على الإطلاق إذ تبلغ مساحتها مائة ميل مربع أى ١٦٠ كيلومترا وهى أكثر المدن ازدحاما إذ يعيش فيها مليونان ومائتا وستة وعشرون ألف نسمة، وهو عدد هائل إذا قورن بسكان

المدن الكندية الأخرى بما فيها العاصمة « أتوا » وهم يعيشون في تجمعات متجانسة وفي أطراف المدينة تجمع للسود وآخر للإيرانيين وثالث للصينيين ورابع للجالية العربية، ومعظم سكان تورنتو من المهاجرين إليها من كل دول العالم خاصة الأوربيين. فأول من جاء إليها هم جماعة «الفكنج» من أوروبا عام ٩٨٦ ميلادية. ثم اتجهت إليها حملة من الإنجليز، وأخرى من الفرنسيين في القرنين الخامس والسادس عشر، وطبعا تبعت الحملتين أهالي إنجليز وفرنسيين تجار وصنّاع، ثم اضطرت فرنسا أن تتخلى عن المناطق التي استعمرتها بعد حرب مع إنجلترا عام ١٧٦٣، وانزوت الثقافة الفرنسية في ولاية « كيبك » وبالرغم من أن كندا قد نالت استقلالها من إنجلترا عام ١٨٦٧ فإن اللغة الرسمية للدولة ظلت الإنجليزية إلى جانب الفرنسية.

مدينة تحت الأرض

مدينة تورنتو ليست عاصمة الولاية التي تقع فيها وهي ولاية أونتاريو لكنها الأكبر والأشهر. وقد سميت لفترة طويلة بـ«تورنتو الصالحة» ذلك أن جماعات دينية، قد سيطرت عليها في تلك الفترة، وأرغمت أصحاب البارات على قصر فتح أبواب حوانيتهم على ساعات محدودة، وفعلت ذلك أيضا مع أصحاب الملاهي ومراكز التسلية، ومنذ ذلك العهد وتفخر المدينة بأنها الصالحة الآمنة النقية النظيفة.

والتسوق في تورنتو متعة كبيرة، وإنا سار الزائر في الشوارع التجارية بها يشعر بمدى التأثير الأوروبي عليها، ويمكن أن يتصور أنه يسير في شارع بلندن أو روما أو فرنسا أو أثينا، وسوف يدهشه وجود سلاسل المحلات التجارية المعروفة في هذه المدن الأوربية، أمثال « ماركس أندسبنسر » و« بوتس » وغيرهما.

ورغم أن فصل الشتاء يكسو المدينة بالثلوج، مثلها مثل معظم الأراضى والمدن الكندية، فإن التسوق لا يتوقف فيها فقد شاركت عدة بنوك كندية عالمية متجاورة فى وسط المدينة، فى بناء سوق كبيرة تحت الأرض التى بنيت عليها هذه البنوك، تشمل السوق أكثر من ١٢٠ محلا تجاريا وممرات واستراحات ومطاعم وفروعا لهذه البنوك، فلا يحتاج المتسوق إلى الخروج منها إلا الشوارع الباردة المغطاة بالجليد، وهو يصل إليها ويرجع إلى بيته عن طريق خط لترو الأنفاق فى المدينة.

ورغم أن الدولة تفرض ضريبة للمبيعات قيمتها ١٠٪ من ثمن السلع، وتضيف إليها حكومة الولاية ضريبة أخرى تصل فى ولاية أونتاريو إلى ٧٪ يستردها السائح من منافذ الخروج من كندا بسهولة، وبالرغم من أن محلات الخدمات المطاعم يبيح لها القانون الكندى إضافة ١٥٪ مقابل الخدمة، ومع ذلك فإن الأسعار فى كندا رخيصة خاصة إذا قورنت بمثيلاتها فى المدن الأمريكية التى لا تبعد عنها إلا كيلومترات معدودة، فالدولار الكندى قيمته الشرائية مثل قيمة الدولار الأمريكى، وإن كانت القيمة البنكية أقل بكثير.

واستطاع أهل تورنتو أن يستثمروا جو الجليد السائد فى بلادهم فنبغوا فى رياضة هوكى الجليد، وفى تاريخ اللعبة أسماء كثيرة كبيرة وعالمية، وهى مدينة أوليمبية وهى مرشحة لتقام فيها دورة عام ٢٠٠٨.

وقد أقيمت فيها بطولة العالم فى رياضة البيسبول، وبطولة كندا لكرة القدم فى أعوام ٩١- ٩٦- ١٩٩٧، وجرت مبارياتها فى الهواء الطلق فى القبة السماوية وسط المدينة، وهى مجمع رياضى فنى ضخم تم افتتاحه عام ١٩٨٩ وتعرض لزائريها فيلما قصيرا يوضح كيف تم البناء فيها، وما هو أوجه النشاط فيها، ثم يشاهد عرضا على مسرحها ذى الشاشة الأكبر فى العالم، وإلى جانب المباريات فى القبة السماوية فى تورنتو يقام فيها الحفلات

والاجتماعات والمعارض التجارية وتصوير الأفلام السينمائية للاحتفالات العامة، وصالات لألعاب الأتارى.

قيادة الطائرات والمشى على الحبل!

وأقدم الآثار فى تورنتو يرجع تاريخه إلى عام ١٩١٤، وهى قلعة «كازا-لوما» التى تم بناؤها على مدى ثلاث سنوات، أبوابها من البرونز ولها أبراج وفيها مخابئ، وحديقة كبيرة، يقيمون فيها عروضا للموسيقى ومهرجانات لها صبغة تاريخية.

أما « بيت ماكنزى » فهو أثر يرجع إلى عام ١٩٣٧ عندنا ، نُصّب وليم ماكنزى كأول عمدة للمدينة بعد أن قاد ثورة للتمرد على السلطات الإنجليزية، وتحول بيته إلى مزار سياحى تاريخى.

لكن تورنتو تهتم بالمتاحف، فمتحف الطيران، يعلم الشباب على قيادة الطائرات، تماما كما يحدث فى متحف مماثل فى مدينة نيويورك ومعظم المدن الأمريكية، وفى المتحف يستطيع الزائر أن يركب الطائرة مع الكابتن، يتحاور مع برج المراقبة فى مطار مدينة هاميلتون القريب من تورنتو، ولو أراد أن يزيد معلوماته عن الطيران فالمتحف به مكتبة لبيع ما يقرب من ٣٠٠ عنواناً تدور حول الطيران تباع بتخفيضات كبيرة لحاملى عضوية المتحف، كما ترسل لهم مجلة بعنوان « الطيران » على عناوينهم.

وتولى كندا اهتماما كبيرا بالعلم، ولها مساهمات واضحة فى الصناعات الإلكترونية وهى موجودة فى تورنتو، وفيها أيضا مصانع تساهم فى بناء سفن الفضاء، وحتى السيرك يعتبره الكنديون خاصة أهل تورنتو، ظاهرة علمية، وألعابا بنيت على حسابات علمية دقيقة إلى جانب كونها وسيلة لجذب السائحين والأهالى إلى متحف يستعرض تاريخ كندا ومساهماتها فى العلوم

الإنسانية ويعرض لأوجه النشاط فيها. إنه «متحف أونتاريو العلمى» الذى يقام فى تورنتو على أربعة أدوار، يقع ثلاثة منها تحت الأرض.

مدخل للمتحف يستعرض الحيوانات التى يعتمد عليها لاعب السيرك، فيعرض صورا من مخلفات هذه الحيوانات!!! بأشكالها الكريهة، يصاحبها أصوات تصدر من سماعات وضعت على حائط صالة العرض ليكون الصوت مع المخلفات دليلا على اسم الحيوان المقصود، وعلى السائح أن يميز بين الحيوانات والطيور من هذين الدليلين، وتسمع فيها مواء القطة، ونباح الكلب، ونهيق الحمار، وصهيل الحصان، وثغاء البقرة، وخوار الثور، ونقيق الضفدع، ورغاء الإبل، وعواء للذئب، وفحيح الثعبان، ودبيب النمل، وزئير الأسد.

وتتعالى عبارات السخرية، ويهرب الجمهور من خلال مصعد إلى الدور الأسفل، وفيه ألعاب، وحلقات لممارسة ألعاب السيرك، كالمشى على الحبل، وارتداء ملابس كوميدية وممارسة ألعاب الأكروبات، والمعزف على آلات النفخ المستعملة فى السيرك والفرجة على ألعاب أكروبات من خلال دراجة، ومشاهدة فيلم فيديو عن تاريخ فن السيرك نشأته وفلسفته وطبيعة لاعبيه. مع عرض للمأكولات السريعة والجافة التى يعتمد عليها أهل السيرك فى رحيلهم ورحلاتهم الطيارى والدائمة، ويطلب منك أهل السيرك أن تضع مناخيرك فى أنابيب بلاستيكية متصلة بهذه الأكلات فإذا فعلت، فذنبك على جنبك، فالرائحة فظيعة تعيد لك الصدمة التى حدثت لك بالصوت والصورة فى مدخل المتحف.

يقوم السيرك بجاذبيته بجر رجل « الزبون » إلى الدورين السُّفْلِيَيْن من مبنى « متحف أونتاريو العلمى » فى الدور الأول صور تشكل الحياة فى

كندا، الأرض، مصادر المياه، الزراعة، المحاصيل الزراعية، الخضراوات، وأشكال الخبز، والمأكولات المستخرجة من الحبوب.

فى الدور الذى يليه ظواهر الطبيعة، المجرات، أجهزة قياس درجات الحرارة، وقياس درجات الزلازل، والأجهزة الطبية والعلمية، ومساهمات كندا فى هذا المجال وفى صناعة السفن الفضائية والطائرات وفى مجال الكومبيوتر، ثم منضدة تتسع لستة من الجالسين أمام شاشات الكومبيوتر، وصفحات الإنترنت، وبالمجان وهنا يمكن أن نقول أن الزيارة لهذا المتحف قد انتهت رغم أن مواعيد إغلاقه لم تحن بعد، فقد اصطف أولادنا جميعهم أمام الإنترنت المجانى، وعبثا حاولنا إبعادهم لتكملة المشوار، لكن ولا بالطبل البلدى.

صور فى المدينة

فى تورنتو أكثر من « صورة حلوة »، فيها الجمال والأمان والعلم وتعايش كل الألوان والأديان والثقافات، وفيها « صورة باهتة » لتعمدها تكرار نماذج المدن الأمريكية التى تتراص فيها ناطحات السحاب والمبانى المرتفعة والتسابق فى بناء الأبراج الشاهقة، وقد تكون هذه الظاهرة مناسبة لمدن أخرى غير تورنتو، ونوعا من العبث من دولة تبلغ مساحتها ما يقرب من عشرة ملايين كيلومتر مربع مع أن عدد السكان لا يزيد على ٢٩ مليون نسمة، وبدلا من أن يقام فيها فى شكل أفقى لاستغلال الأرض الوفيرة، يقام بشكل رأسى. وقد يرجع السبب فى ذلك إلى عوامل نفسية: فالكنديون يريدون أن يثبتوا للعالم ولأنفسهم أنهم قادرون على بناء الأشكال التى تتباهى بها بعض الدول.

تظهر ناطحات السحاب للواقف على شاطئ ميناء بحيرة أونتاريو فى تورنتو، كأنها رسم بالكمبيوتر، ويقف وسطها برج تورنتو العالى، متميزا، فائقا فى الطول.

البرج ما زال الأعلى والأطول بين أبراج مدن العالم الكثيرة فبرج شنغهاى فى الصين أو مبنى التجارة الخارجية بها يبلغ ارتفاعه ٤٢٠ مترا. وبرج سيزر فى شيكاغو الأمريكية ٤٤٣ مترا. وفى ماليزيا يبلغ ارتفاع برجى « بتروناس » ٤٥٢ مترا لكل منهما. وتبنى مدينة بكين حاليا برجا بارتفاع ٥٢٠ مترا، أما برج مدينة تورنتو، فيصل ارتفاعه إلى ٥٥٣,٣٣ مترا.

بنى البرج عام ١٩٧٦، مصعده الزجاجى يصل بالزائرين إلى قمته فى بحر ٥٨ ثانية. فى الدور قبل النهائى يوجد أرضية زجاجية يشاهد منها السائح بانوراما المدينة. والناس تحت أقدامه فى حجم النمل. وفى القمة تلسكوب يرى أراضى ولاية أونتاريو كلها، وتدور الطائرات بالسائحين حول البرج ليتفرجوا على الناس وقد جاءت من كل دول العالم للجلوس فى « قهوة » البرج أو للفرجة على أحد الأفلام فى دار سينما به.

فى تورنتو صورة حلوة، وأخرى باهتة، أما صورة الأعلام السبعة التى ترفرف على مدخل برج المدينة وتتضمن علم دولة إسرائيل بالذات مع أن العالم حاليا ١٩٢ دولة، فهى صورة مُرّة.

من كل فيلم أغنية

يرى الأمريكيون أن أمريكا فوق الجميع، وعلى الكل أن يخلع عقله عند مطاراتها قبل أن يدخل الجنة التى وعدت للمهاجرين! فأمريكا لا تحتاج إلى ثقافات الآخرين، ولا لأفكار العالم، وعلى من يريد أن يكون أمريكياً أن ينسى من أين جاء، وما تعلمه فى بلده، لينضم مع الكل فى واحد هو العلم الأمريكى وفكر العم سام ويتكلم إلى العالم من مناخيره. وبقه المعوج، فأمريكا الزعيمة وحدها، وكلهم ركش.

أما الكنديون فيسعدهم أن تنقل إلى بلادهم ثقافتك، وتجارب بلادك، وأسلوب حياتك، ودينك أيضاً، فهى أرض الثقافات ومجتمع الخبرات، وليس الثقافات المتعددة كالثقافة المحددة والمحدودة.

وفى كندا معارض ومتاحف لكل فنون الدنيا، ولتاريخ الإنسان فى أى أرض وكل زمان.

ويحسب للأمريكان اهتمامهم بالعجزة والمعوقين، فخصصوا لهم أماكن متميزة فى الحافلات، والجراجات، واعدوا لهم حمامات خاصة تساعدهم على الحياة الطبيعية، أما كندا فقد أضافت اهتمامها الكبير بكبار السن من غير المعوقين وهم « السينورز » فأعطتهم تخفيضات كبيرة عند دخول المتاحف والمعارض، لتصل ثمن التذكرة إلى نصف قيمتها أو أكثر قليلا، ويختلف عمر السنيور من متحف لآخر، ومن معرض إلى معرض، فيمكن أن يكون ٥٥ سنة فى بعض الأحيان، وأحياناً يكن الحد الأدنى لسن السنيور ٥٧ أو ٦٠ سنة.

أحذية الشعوب

ما أكثر معارض ومتاحف كندا، من الصناعات الثقيلة، إلى صناعة الشباشب والأحذية، ومتحف الأحذية فى تورنتو متحف دائم فيه أشكال الأحذية التى ارتداها الكنديون عبر التاريخ، وصور للعمال الذين قامت على أيديهم هذه الصناعة.. والمتحف رصد لتاريخ شركة شهيرة جداً فى العالم تخصصت فى صناعة الأحذية وهى شركة «باتا» بدايتها، وتطورها وتوهجها ثم انحسار نشاطها حالياً وذبولها.

وفى المتحف أشكال للأحذية التى تستخدمها الشعوب، وهى فى بعض الحالات تعتبر أحذية قومية أو فولكلورا محلياً، من هذه الأشكال مثلا الكندرة «سبدرين» والصندل، والصارمة والبوت.

والسيراميك له متحف دائم فى تورنتو، فيه إنتاج فنانين ابتكروا، وشكلوا منه تماثيل، ورسموا عليه لوحات جميلة، وبالإضافة إلى عرض لتاريخ هذا الفن فى بيرو إلى المكسيك إلى الأمريكتين، منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد إلى عام ١٥٠٠ بعد الميلاد، وفيه أعمال تعكس حضارة إيطاليا فى قصور الأمراء والكاردينالات. بالإضافة إلى أدوات من البورسالين وآنيات صينى بألوان وقوالب أرستقراطية أوروبية.

أهرامات مصر

ومتحف اونتاريو اسمه روم **Rom** وفيه أيضاً ، من كل فيلم أغنية، يعنى لمحات من دول العالم تعكس الحضارة والثقافة والتاريخ.

من اليمن توابل خاصة، عرفها اليمنيون القدامى منذ ٤٥٠٠ سنة فى جاليرى باسم اليمن.

ومن الصين جاليرى خاص فيه نماذج الصناعات يدوية تقليدية هى صناعة «المنج» وهو اسم لأسرة تخصصت فيها معتمدة على خام الصقيح فتشكل منه زهريات وآنيات.. كذلك فيها ألوان من النقش على الجدران الداخلية للقنينات وزجاجات الخمور والمياه والزيوت ويعكس مقدرة فائقة على تحكم الفنان فى ريشته.. وفى المتحف جاليرى للفن البيزنطى من اسطنبول عندما كانت عاصمة للامبراطورية العثمانية ومركز القوة فى البحر الأبيض المتوسط.

ومتحف اونتاريو يدعو أطفال كندا والسائحين إلى جاليرى مصر لرؤية المومياوات الفرعونية وصور تعلمهم كيف بنى قدماء المصريون الأهرامات وليشاهدوا بعض الآثار المصرية من الذهب الخالص وطبعا هذه الآثار ليست من الذهب الخالص وإلا فإن هذا بلاغ للمسئولين فى مصر عن آثار مصرية مسروقة ومعروضة فى متحف اونتاريو فى تورنتو.

وفى المتحف جاليرى خاص بكوريا يعكس حضارة ثمانية آلاف سنة منذ العصر البرونزى حتى الحديث وفيه أقسام لفن الجرافيك، والطباعة والمعمار، ولوحات من السيراميك.

ويعرض المتحف فى أركانه سيوفاً قديمة ودروعاً وأسلحة من أوروبا، يرجع تاريخها إلى ٥٠٠ سنة مضت، وآثاراً لأكبر أنواع الديناصورات والتى اكتشف بعضها فى كندا، وبعض هياكلها تدل على أنها كانت تعيش فى المنطقة بأعداد كبيرة منذ ١٤٠ مليون سنة.

وحتى الحشرات لها جاليرى فى هذا المتحف يعرض النادر منها فى بلاد الدنيا.

والمتحف، كما هو معرض لثقافات الدنيا هو أيضاً مكان تحتفل فيه العائلات بالمناسبات السعيدة منها عيد ميلاد الأبناء، وتتنافس الأجنحة

المختلفة المكونة للمتحف فى وسائل شد انتباه الزبون واغرائه بإقامة حفلاته على مسارحها.

زهور طول السنة

والحدائق فى كندا لا تخرج عن خط التعددية العالمية، ولا تتمرد على المبدأ الكندى، فهى حدائق عالمية فيها من كل بستان عالمى زهرة.

الحديقة مقامة على أرض مساحتها ١١٠٠ هكتار، وتجمع أزاهير العام بأكمله، فمنها ما يتفتح فى فصل الشتاء، ومنها ما ينام فى البرد ويزدهر فى الربيع وغيرها يفضل فصل الصيف أو الخريف فتظل الحديقة ربيعاً طول السنة.

وتعكس هذه الحديقة العالمية فى تورنتو صورة للتعاون الإنسانى فى مجال الحب والسلام، وكأن المدينة الكندية قد فتحت ذراعيها لاستقبال الورود والرياحين من أراضى المعمورة.

وكما فى تورنتو ثقافات العالم كله، يوجد فن الدنيا وعلى ميناء مدينة تورنتو على بحيرة اونتاريو يجتمع الجاليات والسائحون أمام الشاطئ الكبير للمدينة القديمة فلا يفصل الناس عن الماء إلا سور حديدى رقيق.. فى ماء بحيرة اونتاريو تتمخطر وسائل النقل البحرى لنش أو يخت، ومركب وجندول، وكلها فى أبهى زينتها، تظهر فى ليل تورنتو وكأنها حبات لؤلؤ على صفحة الماء تحمل أسرابا من السائحين وأهل المدينة ليتناولوا العشاء على أنغام الموسيقى ومنظر الماء فى الميناء.. وأمامهم بانوراما العمارات والأبراج وبرج تورنتو فى إضاءة منظمة هادئة.

وعلى جانب الأرض تمتد المطاعم المختلفة، تمثل المطابخ الشهيرة فى العالم الفرنسى، والإيطالى، والتركى، واليونانى، والهندى، والصينى.

وبجوار المطاعم مسرحان كبيران فى الهواء الطلق، أحدهما تخصص فى تقديم الموسيقى الكلاسيكية.. والثانى يمثل المبدأ الكندى فيقدم موسيقى الشعوب، وقد اختار لنفسه اسم «مسرح كل إيقاعات العالم» وتقدمها فرقة من النجوم السود وتحافظ فيما تقدم على المبدأ الكندى، فيقدمون من كل بستان زهرة، ومن كل فيلم أغنية.

مدن الولاية

ومدينة تورنتو أشهر مدن كندا وأقدمها، لكنها ليست عاصمتها، فالعاصمة مدينة «اتوا» وتقع فى نفس الولاية التى تقع فيها تورنتو وهى ولاية اونتاريو الواسعة ويتركز فيها النشاط الصناعى والسياحى للدولة، وهى مقسمة إلى أقاليم منها إقليم بوكونو، شمال تورنتو، وإقليم وسط أونتاريو، وإقليم يورك على حدود كندا مع الولايات المتحدة الأمريكية.

أما أقليم بوكونو، فيقع فيه خليج جورجيا الواسع، ويوجد به أعجوبة من أعاجيب أمريكا الشمالية وهى العدد المهول للجزر الصغيرة والكبيرة والتى يصل عددها إلى ٣٠ ألف جزيرة، وفى نفس ولاية «اونتاريو» توجد بحيرة الألف جزيرة، تجرى فيها اللنشات، وتستعرض جزرها واحدة واحدة، وتظهر أولاها للمشاهد بعد دقائق قليلة جدًّا من بدء رحلته.. أما الـ ٣٠ ألف جزيرة فيصل إليها «اليرى» بعد أكثر من نصف ساعة من بداية رحلته حتى يظن السائح أن وجود هذا العدد الهائل من الجزر، إنما هى «نكتة» أو مقلب من إدارة المنطقة والشركة السياحية وتظهر الجزر فتجد نفسك أمام منظر غريب وطريف، فبعض الجزر فى قلب مياه خليج جورجيا، وبعضها بنت عليه السلطات بيوتا وأكشاك، ومقار للإدارة، فتبدو البيوت التى بنيت على معظم مساحة الجزيرة وكأنها مبنية على الماء.

ومن المدن الشهيرة فى إقليم يوكونو، «يارى» و«صوت يارى» وهما مدينتان صغيرتان لا يزيد عدد سكان كل منهما على مائة ألف نسمة، ومع ذلك تتراص المحال التجارية بالعشرات ومنها بعض سلاسل المحال العالمية وأسواقها تكفى لتسوق نصف دولة إذن فهما مدينتان تجاريتان.

ومنطقة كولتوود، قديمة ولها تقاليد ثابتة تنظم المهرجانات الفنية والمسرحية والحفلات التى تشارك فيها فرق القرب الموسيقية الإنجليزية، ويقيم الأهالى حفلات شعبية يشارك فيها الكبار والصغار بالرقص الجماعى فى الشوارع.

والمطرب الأمريكى القس بريسلى يقام له فى هذه المنطقة مهرجان غنائى سنوى يغنى فيه محبوه ممن اعتادوا تقمص شخصه فى الشكل واللون الغنائى «الروك اندرول» ويحضر هذا المهجران الصيفى ٨٠ ألف شخص ستوياً.

فى منطقة «ميرلاند» على خليج جورجيا تقع مدينة هيورن على بعد ١٦٠ كيلو مترا شمال تورنتو وفيه قرية هندية قديمة تصور مجتمع الهنود الحمر أهل أمريكا وكندا الأصليين، والذين عاشوا فيه قبل مجىء الأوروبيين إليها، إنهم «الهيورينا» – أحد فصائل الهنود الحمر – يعيشون على نفس النهج الذى كان يعيش فيه أهلهم منذ حوالى ألفين عام، ويزرعون الأرض بالحبوب ويقطعون أشجار الغابات وكلمة «مورسكوكا» فى لغة «الهيورينا» تعنى موقع الأرض الحمراء وقد أطلقوها على نهر قديم هناك ومدينة تقع على بعد ساعتين شمال تورنتو بها منزل شخصية كندية قديمة هى الدكتور نورمان بتيون المولود ١٨٩٠ والذى سافر للعمل فى الصين، فلما قامت الحرب بينها وبين اليابان شارك إلى جانب الصين

وكانت له نشاطاته فى مجال التعويض واختراعاته فى مجال الطب ومعداته وهم يحكون قصته فى المنزل على شريط فيديو يعرض أمام الزائرين من السياح.

أما مدينة بريس بريدج فهى عاصمة للشلالات فى العالم فيها ٢٢ شلالا ويقعون لها مهرجاناً أول شهر مايو من كل عام، والمدينة بداية لخط سكة حديد هو الأطول فى العالم إذ يبلغ طوله ١٦ ألف كيلو متر ويربط بين المحيطين الأطلسى والهادى.

تايتنك كندا

أما وسط أونتاريو فهى مصيف جماهيرى على شاطئ «واساجا»، الذى يزوره مليونا سائح سنوياً، ونهر «موتاوا ساجا» له شهرة تاريخية ترجع إلى جزيرة نانسى القديمة، الجزيرة تحمل اسم عبّارة بنيت ١٧٨٩ وبينما كانت تمر فى النهر عام ١٨١٢ ضربها الطيران الأمريكى فى الحرب التى قامت بين كندا وأمريكا فى ذلك الحين فغرقت فى مياه النهر رغم ما بذله قائدها اللفتنانت ورسلى من جهود لحمايتها، وقد رفعت السلطات الكندية بقايا العبارة عام ١٩٢٨ وعرفت بأنها «تايتنك كندا» أسوة بتايتنك الشهيرة التى غرقت فى المحيط الأطلسى.

التعددية فى كندا لا تقتصر على الثقافات والأديان، وإنما حباها الله بطبيعة فيها كل الأشكال والتى تحتويها كتب الجغرافيا، والطبوغرافيا، والانثربولوجيا، ففيها من كل بستان زهرة، ومن كل فيلم أغنية.

الحياة هنا.. لونها بمبى !!

لو أن المؤرخ الصينى كونفشيوس عاش معنا، لعدّل من مقولته الشهيرة: «إذا أردت أن تتعرف على شعب فاسمع موسيقاه.. لتصبح «فشاهد تليفزيونه» لأنه يعكس حضارته وأخلاقه، وقدرته على استيعاب العلم والتكنولوجيا، ومدى استفادته منها، فالإعلام التليفزيونى علم وفلوس وتراث وبيئة.

فى الفندق الذى نزلت به فى تورنتو جهاز تليفزيونى كبير، وهذا منظر معتاد، أما غير المعتاد فهى التوصيلات السلكية المتصلة به والممدة بجواره، إنها استعدادات تكنولوجية لتساعد النزيل ليستعمل جهاز الكومبيوتر الخاص به والتى ترافقه فى سفرياته وأماكن عمله وربما نزهته فهى ذاكرته وسكرتيره الخاص.

وفى كندا، اختفت من إعلانات السلع، عناوين البائع والصانع والوكيل. وحلت محلها العناوين الإلكترونية.

وأحدث تكنولوجيا صناعة التليفزيونات ظهرت فى ترجمة ما تعرضه الشاشة، فإذا كان المذيع أو المذيعة يطلان على المشاهدين ليقولا الجملة المملة المكررة فى تليفزيونات الشرق الأوسط وهى «كونوا معنا» وإذا كنت قد مللت سماع الجملة التى تقال بشكل قرودى، يعنى مقلد فلك أن تضغط على زر الصوت لتظهر على الشاشة كلمة **Mute**، ويظهر أيضا الترجمة الحرفية لما تقول المذيعة، أو الممثل أو فتاة الإعلان، فالأخيرة تكتفى بالرقص أما ما تقوله عن السلعة التى تعلن عنها فسوف يكتب فى سطر معتدل مثل ترجمة المسلسلات والأفلام الأجنبية فى مصر والبلاد العربية.

أما اللغة التى تكتب بها الترجمة للصوت فى تليفزيون كندا فهى إما الإنجليزية أو الفرنسية وهما اللغتان الرسميتان للدولة، فإذا أردت الإنجليزية فاضغط على زر الصوت، وإذا أردت الفرنسية فاضغط مرة ثانية على نفس الزر.

تليفزيون الجاليات

فى صباح يومى الإجازة الأسبوعية فى كندا، وهما السبت والأحد، يخصص التليفزيون هناك نصف ساعات النهار للبث الخاص بالجاليات غير الكبيرة فى المجتمع الكندى، فاللغة الإنجليزية لها قنوات دائمة، والفرنسية عدد القنوات الناطقة بها أقل، لكن اللغات الهندية والعربية، والإيرانية والكورية وغيرها قد خصص لها التليفزيون الكندى الرسمى نصف ساعة صباح كل سبت، ومثلها صباح كل أحد.

فى هذه الفترة يتولى أبناء الجالية تقديم برامج إخبارية عن جاليتهم ويعرضون صورا لثقافاتهم، وأفلاما تسجيلية من بلادهم الأصلية.

والبرنامج العربى يعرض رسائل من الدول العربية، وأغنيات فيديو كليب مهداة من شركات إنتاج عربية، والمذيعة لبنانية دائما والنجوم أيضا، والفرق الزائرة من المسرحيين وأهل المغنى معظمهم من أهل لبنان، وتتسابق إليهم كاميرات المحطة الناطقة بالعربية، كما تلبى المذيعة طلبات الكنديين العرب من الأغنيات المتاحة والمشاهد المسرحية.

وهناك إذاعة ناطقة بالعربية ويتولى تقديم برامجها مذيع لبنانى أيضا وتركز على التعريف بألوان الغناء العربى والموسيقى وتستضيف متذوقين له وعارفين بخباياه، ويتصل العرب بالإذاعة عن طريق التليفونات، وشبكة الإنترنت ويقدم المذيع ما يطلبه المستمعون من مكتبته الخاصة.

وكذلك تفعل الجاليات الأخرى، ويمكن أن تتابع ثقافات معظم دول العالم فى العطلة الأسبوعية وتعرف ما يدور فى كوريا واليونان، ومصر ولبنان فإذا ما جلست أمام الشاشة الصغيرة فى النصف الأول من اليوم، فشاشة الإجازة فى تورنتو انعكاس للشارع الكندى، وعليها كل ألوان البشر بتعدد الدرجات.

مدينة فنون العالم

وتحتل تورنتو المركز الثالث بين عواصم الفن، خاصة المسرح، بعد مدينتى نيويورك الأمريكية، ولندن الإنجليزية. فهى تعرض المسرحيات العالمية التى تعرض على مسارح عاصمتى الفن فى العالم، ومن هذه المسرحيات «القطط» و«البؤساء» و«شبح الأوبرا» ومسرحية الأطفال «الأسد ملك الغابة» أما مسرحية «ماما.. ميا» فقد كسرت الدنيا هناك وسجلت أرقاما قياسية فى بيع التذاكر وهى تحكى قصة فتاة بائسة تعيش مع والدها وهى كبيرة السن، وقد تأخر عليها قطار الزواج.

ومعظم المدن ذات الثقافة الإنجليزية، يلعب شيكسبير دورا أساسيا فى مسارحها. فيقدمون أعماله فى أشكال درامية بحتة أو استعراضية، أو غنائية، ومع ذلك فيوجد فى تورنتو «المسرح الكندى المتخصص فى تقديم مسرحيات لكتاب محليين و«مسرح الشباب» المتخصص فى العروض الشبابية، وأيضا «المسرح الكوميدى» و«مسرح تورنتو».

أما مسارح الطعام فقد انتشرت مؤخرا فى العواصم الكبرى للعالم ومنها تورنتو، وفيها يتناول الزبون طعامه بمصاحبة عروض مسرحية جية، كوميدية أو استعراضية.

وكذلك فإن العروض الكلاسيكية للموسيقى والأوبرا وحفلات الأوركسترا وعروض فن الباليه لها نشاط أكبر وأعظم فى تورنتو من معظم المدن الأمريكية.

والسينما تعرض فى تورنتو فى مجمعات تضم أكثر من دار منها ما يتخصص فى تقديم الأفلام الكوميدية، ومنها ما يقدم أفلام «الأكشن» ومنها ما يقدم الكارتون، والأفلام المجسمة وهى السينما المعروفة بـ «أيماكس» وتقدم موضوعات أثرية من دول العالم كما تقدم أحيانا موضوعات فانتازيا بالكارتون المجسم فى شكل استعراضى. ومثل هذه العروض تقام بها دور عرض خاصة تزود بأجهزة حديثة من كاميرات العرض بعدد كبير وأجهزة صوت تصل قوة ترددها إلى عشرة آلاف ميجاوات وهو رقم هائل ينقل لك كحة البطل كأنها قنبلة عنقودية أسقطتها طائرة من طائرات الحلفاء على عشة فى أفغانستان ! !

والمشاهد بعد أن يختار العرض الذى يروق له، يمكنه الحصول على تذكرة الدخول بشكل بسيط وسريع وأوتوماتيكى، فيوجد بعد مدخل المجمع السينمائى عدد من الدواليب التى تعمل أوتوماتيكيا، تخرج لك التذكرة بمجرد وضع وحدات العملة التى تعادل ثمن التذكرة، وبعد أن تضغط على الزر الخاص بالعرض الذى اخترته، ويمكن استعمال الكارت الائتمانى الخاص بك.

ويشمل المجمع السينمائى، صالات تصلح للاحتفالات الخاصة مزودة بإضاءة حديثة، ويوجد صالات لاجتماعات رجال الأعمال، وغيرها للاحتفالات العامة وصالات لألعاب الأتارى.

مهرجانات الشوارع

ومدينة تورنتو الصالحة، ليست مدينة بهرجة وصخب مثل مدن كندية أخرى منها مونتريال، وكيبك، التى تنتظر دفء الربيع والصيف لتبدأ مهرجانات فنية مبتكرة ومنوعة فى شوارعها لا تنتهى إلا بقدوم الخريف الكندى، أما تورنتو، فتكتفى بتحويل بعض شوارعها إلى مسارح لأغانى وموسيقى الجاز فى أيام محددة تعلن عنها باسم «مهرجان الجاز» وهى لا تزيد على عطلة نهاية الأسبوع. لكن فى منطقة تورنتو، وبالتحديد حول مدينة «بارى» تقام المسابقات المفيدة والطريفة والهادئة. فتقيم إدارة الطرق مسابقة بعد ظهر كل سبت، يشارك فيها هواة اقتناء السيارات التحف، أو كما يكتبون على سياراتهم أو تكتب لهم إدارة المرور «السيارات التاريخية» أى التى مر على صنعها تاريخ طويل.

ويتفنن المشاركون فى تصنيع أو تعديل سياراتهم، واحد منهم أخرج موتور السيارة وثبته فوق غطائها العلوى وآخر صنع جسم سيارته على هيئة كتكوت، أو على شكل بيضاوى له عجلات أربع، وغيره اكتفى بثلاث عجلات .. ومتسابق ركز على تلوين سيارته فلا تعرف إن كانت زرقاء أم خضراء، فكلما شاهدتها من زاوية اختلف لونها.

والحكم فى هذه المسابقة للجمهور، فكل الحاضرين ومعظمهم من هواة ركوب السيارات أو القراءة عنها أو الفرجة عليها، كل واحد يسحب بطاقات استقصاء الرأى من فوق منضدة توسطت الساحة التى يقام عليها السباق، وهى فى الأصل جراج مفتوح لأحد التجمعات التجارية للمدينة، وتجرى المسابقة فى النصف الثانى ليوم السبت وهو عطلة عند كل محلات هذا التجمع التجارى.

يتقدم الجمهور برأيه، وتفرز إدارة الطرق البطاقات، لتعلن أسماء الفائزين. أما الجوائز فهي رمزية من كأس مصنع يدويا من الخرز والبلاستيك يقدم للفائزين بالمراكز الثلاثة الأولى، و«تي شيرت» مطبوع عليه اسم المسابقة، ومنظميها، للمراكز التالية.

ومظهر السيارات المشاركة في المسابقة يؤكد أن أصحابها قد أشرفوا بأنفسهم على صناعتها لتحاكي موديلات العشرينات من القرن الماضي، فجميعها جديدة تماما، كل شيء فيها يلمع. كما لو كانت خارجة لتوها من المصنع، لكنها سيارات صغيرة الحجم عكس الموديلات القديمة المعروفة بكبر حجمها وضخامتها، ثم إن المفتاح يقوم بتشغيل السيارة، وقبل ذلك بالإضاءة أوتوماتيكيا وهي أحدث ما وصلت إليه صناعة السيارات فكلها تضاء أوتوماتيكيا ليضمن سائقها أن الإضاءة تعمل ليلا ونهارا وهو شرط القيادة في كندا، وهي أيضا مزودة بمقياس لدرجة الحرارة والبرودة خارج السيارة، ومنها ما فيه اسطوانة متصلة بالأقمار الصناعية لترشد السائق إلى المكان المتجه إليه حسب الخرائط الخاصة بطرق العالم.

تعليم نموذجي

وتهتم كندا بالتعليم، وتقدمه بالمجان في كل مراحله وحتى التعليم الجامعي تضع له نظاماً مالياً لا يرهق الطلبة ولا أولياء أمورهم. فتفتح المجال في مراحل السن الصغيرة لكي يشارك ولي الأمر في وثيقة تأمين تكفل لابنه التعليم الجامعي بالمجان عندما يصل إليه فلا يصبح عبئا لا على الطالب ولا على ولي أمره.

ورئيس الجامعة يتم اختياره بدقة وعناية، وتتشكل لهذا الغرض لجنة تظل لعمل لمدة تصل إلى العام الكامل قبل أن ترشح رئيسا للجامعة على أن

تكون سمعته العلمية فى جامعات العالم هى أهم مسوغات تعيينه. وقد اختارت لجنة جامعة تورنتو العالم الكندى روبرت بيرجينو رئيسا للجامعة، وكان أستاذا للفيزياء بمعهد ماساتشوسيتس وتلك لسمعته العلمية، وليس شرطا أن يكون كنديا فالعرف هناك أن يختار رئيس الجامعة من أفضل المرشحين والمتقدمين على مستوى العالم وبالمناسبة فإن منصب نائب رئيس جامعة تورنتو قد شغله لمدة ٩ سنوات أستاذ مصرى تخرج فى جامعة القاهرة عام ١٩٦٤ ولم يصل إلى هذا المركز إلا بعد أن بلغ درجة علمية فوق العادية، ومعظم جامعات العالم تدرس مؤلفاته فى مجال الهندسة الكهربائية والإلكترونيات، وبالمناسبة أيضا فإن جامعة تورنتو هى التى اكتشف فى معاملها العالم بانتنج الأنسولين لعلاج مرضى السكر وكان أستاذا بها.

وتقوم المدارس والجامعات فى تورنتو بدور رياضى وتربوى كبير إذ تفتح أبوابها لأبنائها الطلاب فى أيام الإجازات الشتوية والصيفية، ليمارسوا نشاطات فنية ورياضية، مقابل مبالغ مالية رمزية. خاصة وأن القبول فى الجامعات هناك له شرط أساسى وهو أن يكون الطالب صاحب موهبة أو هواية أو يمارس نشاطا رياضيا أو فنيا.

صناعة وزراعة وسياحة

معظم الأهالى فى اونتاريو فلاحون، يهتمون بالزراعات التقليدية كالذرة والقمح، وبين المساحات الواسعة لهذين المحصولين، يمكن أن ترى زراعة للبصل والقرنبيط والكرنب لكن ليست بمساحات كبيرة.

الزائر الصيفى لكندا لن يشاهد زراعات الأرز فيها، لكن البالات المبعثرة فى زراعات القمح تؤكد أنها موجودة بكثرة، وهم لا يحرقون قش

الأرز، احتراماً للبيئة التى يحافظون عليها بشدة، ويتخلصون من القش فى شكل شرائط مضغوطة فى شكل بكر ويتركونها فى الأرض طوال العام أما الحبوب فتوضع فى خزاناتها مرتفعة فى وسط الحقول أيضا.

والرى فى اونتاريو يعتمد على الأمطار فى الشتاء أما فى الصيف حيث يقل المطر فيستعان بوسائل التنقيط المتبعة فى مناطق كثيرة فى العالم.

ويعتمد الفلاحون فى اونتاريو على الحصان اعتمادا كبيرا فى الانتقال بين الحقول، أما نقل الحطب والمحصولات فتقوم به السيارات نصف النقل والعادية.

والمنازل الريفية فى الجبال والغابات منفردة أو فى تجمعات صغيرة جدا. وتبنى من الخشب العازل للحرارة. وكثيرا ما يشترى أهل المدن منازل وسط الحقول من أجل الهدوء والبيئة الأكثر نقاء وإن كانت أسعار المنازل مرتفعة إذ يصل ثمن البيت إلى ٣٠٠ ألف دولار مع أن البناء خشبى والارتفاع محدود.

كذلك فإن ملاعب الجولف المقفولة والمفتوحة تنتشر بين الحقول الكندية بكثرة كما تنتشر رياضات التزحلق على الجليد.

ويتركز فى ولاية أونتاريو النشاط الصناعى، وينتج فيها ٥٥٪ من الصناعات الكندية ومنها الصناعات الإلكترونية وصناعة الحديد والسيارات والصناعات الغذائية، وبها مشاريع صناعية مشتركة بين الكنديين والأمريكيين، وتعتمد الصناعة على المعادن الموجودة فى الأرض خاصة فى منطقة هودسون الغنية بالمعادن، وبالغابات رغم أنها منطقة ثلجية تكسوها الثلوج معظم شهور السنة، ومليئة بالأنهار والبحيرات.

وولاية أونتاريو، سياحية من الدرجة الأولى وتظهر فيها التعددية فى كندا فى إقليم يورك المجاور للولايات المتحدة الأمريكية، فبالرغم من كثرة الأسماء المعروفة فى التاريخ والثقافة الإنجليزية فإن الأسماء تتنوع فى هذا الإقليم لتعكس ثقافات كثيرة منها العربية حيث تقرأ أسماء لشوارع تحمل أسماء الأردن، وكازبلانكا وغيرها.. كذلك من الناحية السياحية، فإن شلالات نياجرا الشهيرة.. قد جعلت الولاية فى مصاف الأماكن السياحية فى العالم.

الزراعة فى كندا ومعها الصناعة، والسياحة، جعلت الحياة هنا لونها بمبى.

مسلمون فى الشمال

فى كندا، والولايات المتحدة الأمريكية، لا ينص الدستور على دين رسمى للدولة، وحرية ممارسة الأديان مكفولة، ودور العبادة على كل لون، والمجتمع يحترم الحريات بكل أنواعها، فالتلميذ له أن يصوم رمضان ولا يطلب منه نشاطات تنال من طاقاته وهو صائم، والأم المحجبة لها كل الاحترامات التى تتعامل بها الأخريات. وقد شاهدت على كورنيش نهر هدسون بنيويورك رجلا فى زى إسلامى أبيض وعمامة، راقبته من نافذة السيارة فإذا به يختال بعصاه كما يفعل عمدة بلدنا ساعة العصارى على شاطئ بحر مويس.

هكذا كان حال الشمال الأمريكى قبل أحداث الثلاثاء الدامى ذلك اليوم الذى يمكن اعتباره حدا فاصلا فى مفهوم الحرية هناك فقد قبض على كثير من المسلمين الأبرياء لمجرد أنهم يحملون أسماء إسلامية وعربية وتعرضت العائلات للضرب والإهانة. وشكا السفير المصرى فى واشنطن من غموض مصير المصريين المعتقلين هناك، وصعوبة الحصول على معلومات بشأنهم.

فيلم فى مطعم

على أحد الطاولات فى مطعم شهير بتورنتو جلست رغدة خليفة لتناول الغذاء مع زميلات لها فى كلية الحقوق هناك. وجميعهن كنديات من أصل مصرى، فى الطاولة المجاورة كان يجلس مجموعة من الشباب الأمريكى جاءوا كعادة الأمريكان لقضاء يوم بأسعار رخيصة فى تورنتو،

اكتشفوا أن البنات من أصل عربى، وقد دلتهم على ذلك لغة الحوار بينهن، فاقتحم الشباب الأمريكى وكان عددهم خمسة، طاولة البنات، وهات يا ضرب.. كل منهم أعتبر نفسه الشجيع فى أفلام الكاوبوى الذى تعود اقتحام الحانة وطاخ.. طيخ.. طوخ، قفل يا جدع فى سبيل المكافأة الذى ينتظرها وهى قبلة أو حتى ابتسامة من البت البطلة الجميلة. صرخت رغدة وصديقاتها، ليهرع إليها البوليس الكندى النشيط، ونجح فى القبض على المتهمين، لكنه لما اكتشف أن المجنى عليهن مسلمات أوحى للجناة بالهروب، وتدخل شاب مصرى تصادف وجوده فى المطعم، بالسؤال عما يجرى، فتم القبض عليه من جانب نفس البوليس.

وليس كل الشعب الكندى يحمل هذا الشعور للمسلمين، وبعضهم لم تنطل عليهم ألعاب الإعلام اليهودى، فقد كان يراقب الموقف من أوله شاب كندى لم يعجبه الحال المايل للبوليس، فتقدم بشكوى إليه مدعيا أن الشبان الأمريكيين الخمسة قد تهجموا عليه شخصيا وسرقوا أمواله وساعة يده، و.. و.. وهنا تغير موقف البوليس الكندى مرة أخرى واتصل بسلطات الحدود الأمريكية الكندية فى مدينة نياجرا، يطلب القبض على الشباب الأمريكى لتقديمهم للمحاكمة.

ويؤكد الموقف العادل والحضارى لهذا الشاب، سيدة كندية تعيش فى دولة البحرين، فما علمت بتفاصيل هذه القضية الدرامية ، اتجهت إلى والد رغدة الذى يعمل طبيبا هناك واعتذرت له والدموع فى عينيها، وأكدت له أن الشعب الكندى غير مقتنع بتصرفات البعض ومنهم رجال البوليس أبطال هذه القضية.

لكن قصة المهندس المصرى سابقا الكندى حاليا محمد عطية البالغ من العمر ٥٤ سنة، صورة أخرى تعكس التغيير الذى طرأ على مجتمع الشمال

الأمريكى تجاه مسلمى الشمال، فقد تم القبض عليه عقب أحداث الثلاثاء الدامى- وفى قول آخر الأسود- فى مقر عمله بإحدى محطات الطاقة النووية فى منطقة قريبة من مدينة «أتوا» عاصمة كندا، وتم استجوابه من جانب المباحث والمخابرات هناك فى أحد مراكز الشرطة، ولما أفرجت عنه عاد إلى عمله ليخبره رئيسه بأنه قد تم فصله من العمل، وإلغاء البطاقة الأمنية الخاصة به، ولأن المهندس أب لأربعة أبناء، وكندى الجنسية، مصرى الأصل، قرر إقامة دعوى قضائية ضد المباحث الفيدرالية والمخابرات الكندية وهيئة الطاقة الذرية وضابط الشرطة الذى خرج عن المألوف هناك وسأله فى أثناء التحقيق معه عن أمور خاصة بمعتقداته الدينية مثل: كيف لمسلم مثلك ألا يؤدى فروض الصلاة أثناء عمله؟!

مدينة المائة مئذنة

اتصلت بدليل تليفونات مدينة تورنتو، لأستعلم عن موقع أقرب مسجد لسكنى، قدمت لى الموظفة رقما اتصلت به وإذا به منزل لسيدة فهمت من لهجتها الإنجليزية أنها باكستانية. وقالت لى إن زوجها هو المسئول عن المسجد الصغير فى الحى الذى تعيش فيه، وأنه الآن فى المسجد،

وفى الطريق إلى مدينة نياجرا جنوب تورنتو لمحت مئذنة مسجد فى حى اسمه شيريدان بمدينة مسسايوجا، لما اقتربت منه قرأت على واجهته باللغتين العربية والإنجليزية عبارة «مركز شيريدان الإسلامى»

البناء الخارجى للمسجد لم يكتمل بعد، والعمل جار فيه، الشبابيك على شكل هندسى شرقى ينتمى إلى الطرز المستخدمة فى مدن آسيا الوسطى، بعد المدخل على اليمين ممر ضيق طويل تصطف عليه أبواب كثيرة، منها واحد لدورة مياه خاصة بالرجال وآخر حريمى بعد الممر،

مكتبة كبيرة تبيع الكتب الإسلامية والمصاحف وتقويم إسلامى للعام ثمنه دولار واحد.

وفى غرفة أخرى تجلس فتيات فى العشرينات، محجبات تكلمت معهن لأسألهن عن ظروف مجيئهن إلى كندا وعرفت أنهن من سوريا وباكستان، ثم سألتهن عن مدير المركز ومطبوعاته فقدمن لى المطبوعات ووعدن بإرسال الصور لى بالبريد .. أما مدير المركز فعرفت منهن أن موعد حضوره قبل صلاة الجمعة بعد قليل. ضبطت الأخت الباكستانية تحملق فى وجهى، فبادرتها.. فيه إيه؟!.. قالت: إنت قريب المثل صلاح قابيل؟. السؤال نقلنى فى لمحة من تورنتو كندا إلى ستامونى مركز بلقاس دقهلية.

والمركز الإسلامى ليس مسجدا فقط، إنما هو مؤسسة إسلامية يقدم خدمات كثيرة للمسلمين هناك، ففيه مكتب لتسهيل رحلات المسلمين، الرحلات الدينية كالحج والعمرة والرحلات الترفيهية. وفيه مكتب لمشاريع الإسكان التعاونى، وآخر لجمع الزكاة وإخراجها للسائل والمسكين وابن السبيل والمؤلفة قلوبهم.

وحوائط المركز وسيلة إعلام للرواد تعلق عليها اللافتات التى تحمل لهم الأخبار والتهانى والخدمات. قرأت على لافتة إعلانا عن إقامة معسكر للشباب المسلم، ولافتة كتبت عليها «قائمة الشرف» بأسماء كبار مشايخ المسلمين الذين زاروا المركز وكانت لهم إسهامات فى إنشائه وتقويته وإعانته على القيام بدوره منهم المشايخ محمد الغزالى ويوسف القرضاوى والإمام محمد نسيم والدكتور سعيد عباس والدكتور إبراهيم ناجوم والثلاثة من أمريكا والشيخ شاكر السيد وهو أمريكى أيضا، ومن كندا الدكتور محمد خطاب والأستاذ زاهد أبو رغدة ومن باريس الدكتور طارق رمضان.

أما مدرسة الهجرة فقد طلبت – فى منشور – مدرسين متفرغين لفرعها فى مدينة تورنتو.

أما الدكتورة فرحات نسيم هاشمى، فهى من مدينة كراتش حصلت على درجة الدكتوراه فى الدراسات الإسلامية من جامعة جلاسكو، وزارت مكتبات إسلامية شهيرة وأطلعت على بعض ما فيها منها مكتبات فى مصر والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية وسوريا وتركيا. ودرست اللغة العربية وعلم الحديث فى بريطانيا، وهى عضو مؤسس لمنظمة الهدى الدولية فى كراتشى ولفروعها فى مدينة إسلام أباد ومدن باكستانية أخرى.

ويعلن منشور على حائط المركز أن الدكتورة فرحات جاءت لتلقى عدة محاضرات مهمة فى التفسير والحديث موجهة إلى المرأة المسلمة وذلك فى مسجد مدينة مسسايوجا القريب بعد أن زارت الدانمارك وفرنسا وألمانيا وهولندا والنرويج والإمارات العربية والولايات المتحدة الأمريكية وألقت فيها بعض المحاضرات كذلك فإن الدكتور محمد إدريس زبير، زوج الدكتورة فرحات له نشاط كبير فى مجال الدعوة الإسلامية.

ساحة المسجد فى المركز ليست واسعة، ولا تتسع لأكثر من خمسمائة مصل. وقد اقتطع منها جزء فى نهايتها ليكون مصلى للسيدات ويتسع لحوالى ١٥٠ منهن.

رفع الأذان لصلاة الجمعة مسلم باكستانى لكن بنغمة مصرية وقف الخطيب أمام المصلين وعلى نفس الأرض أى بدون منبر، وهذا ليس تقليدا، إنما المنبر فى المسجد فى حالة إعداد. كان الخطيب يرتدى قميصا

«كاروء» بنصف كم، وهو ملتح وأصله من لهجته- عربى- أما الخطبة فمكتوبة أركانها الشرعية يلقيها الخطيب باللغة العربية ارتجالا والخطبة نفسها باللغة الإنجليزية وفيها تفسير لبعض آيات الذكر الحكيم. وتزدحم ساحة المسجد بالمصلين فيطلب الخطيب خطوة إلى الأمام لإتاحة الفرصة للقادمين.

بعد الصلاة توالى الخطباء الذين قدمهم الخطيب الأساسى واحدا تلو الآخر، فطلب مسن هندى الاشتراك فى مشروع للإسكان يخدم المسلمين، وطلب شيخ باكستانى التبرع من أجل بناء مسجد جديد فى المنطقة.

تبرعوا لصالح الأفغان والشيشان

قال لى مدير مركز شيريدان الإسلامى إن المنطقة فيها ٥٠ مسجدا للسنة ومثلها تقريبا للشيعة، فتورنتو مدينة المائة مئذنة. والمركز يرعاه الاتحاد الإسلامى لشمال أمريكا المعروف بـ ISNA إسنا. ويبلغ عدد المسلمين الذين يرعاهم الاتحاد حوالى ٨ ملايين مسلم.

المقر الرئيسى للاتحاد الإسلامى هو مدينة بلينفيلد بولاية إنديانا الأمريكية. ويعتبر جزء من حركة عالمية، ويقيم مؤتمرا سنويا فى كندا. أما المساجد التابعة لهذا الاتحاد فتقدم للمسلمين فى الشمال الأمريكى خدمات كثيرة، منها إقامة الصلوات الخمس وصلاة التراويح والتهجير خلال شهر رمضان المعظم، وتقدم وجبة الإفطار للمصلين خلال الشهر الكريم أيضا، كما تقيم صلاتى عيدى الفطر والأضحى وتقيم المساجد حلقات لتعليم الكبار، وخدمات الزواج والجنازة كما نقوم بجمع الزكاة وإخراج الصدقات وتوزيعها على فقراء المسلمين كما تقيم جلسات الحوار بين الشباب وتعمل على حل مشكلاتهم. كما تلقى المحاضرات فى المساجد فى موضوعات

الشريعة والفقه، وتعلن عن مشروعات التعاون الإسكانى، والرحلات الدينية والترفيهية.

ومسجد «جابى» واحد من المائة فى تورنتو، قرأت على أحد جدرانه كشف حساب للخدمات التى قدمها والنشاطات الإسلامية التى مارسها. أما مسجد «نور الحرم» فعلقت إدارته على الحائط منشورا تطلب فيه من المسلمين أن يتصلوا بالأخ ألن أوكانوفيتش الذى يصل إلى المسجد خلال الساعات القليلة القادمة فى جولة يجوب كل مدن كندى على دراجه، وذلك للمرة الثانية. أما الهدف فهو جمع تبرعات للمسلمين أبناء أفغانستان وفلسطين والشيشان ولأطفال العراق وجميعهم فى حاجة ماسة إلى مأكل وملبس وكتب وعلاج.

لقد تخطى النشاط الإسلامى حدود كندا من خلال الاتحاد الإسلامى لأمريكا الشمالية ISNA إسنا الذى بدأ نشاطه فى الظهور عام ١٩٨٣ فى شكل رابطة صغيرة للطلبة المسلمين فى أمريكا وكندا وكان النشاط محدودا مقصورا على مهمة واضحة هى شرح طبيعة الإسلام وأركانه ومبادئه، لزملائهم فى الدراسة، وتطور النشاط فأصبحت الرابطة هيئة لها مؤسسات متخصصة فى النشاط والخدمات لمسلمى المنطقة ثم للعالم ونجح الاتحاد وشعرت سلطات أمريكا وكندا بقوته، فأصدرت طابع بريد إسلامياً من خلال هيئة البريد الأمريكية، عن عيدى الفطر والأضحى وذلك من ضمن سلسلة الطوابع التذكارية التى تصدر فى مناسبة احتفال الطوائف المختلفة لشعبى الدولتين بمناسبة أعيادهم الدينية، والطابع الإسلامى ثمنه ٣٤ سنتا وهو أول طابع بريد يحمل كتابة باللغة العربية وذات صبغة إسلامية فى الشمال. بل إن المدير الإقليمى لهيئة البريد الأمريكية، بمدينة «سانت أنّا» بولاية كاليفورنيا قال إن إصدار مثل هذا الطابع مصدر اعتزاز وفخر

لهيئة البريد وللطائفة الإسلامية، وللأمريكيين بشكل عام ثم أصدرت مصلحة البريد طابعا بمناسبة عيدى الفطر والأضحى لعام ١٤٢٢ هـ وطبعت ٧٥ طابعا منه وكتب على الطابع عبارة « عيد مبارك ». باللون الذهبى، على خلفية زرقاء صممه خطاط عربى هو محمد زكريا.

مسلمون فى الجيش

لكن مسلمى أمريكا وكندا غير قادرين على التأثير فى مجتمعهم، والوعى الدستورى عندهم لا يختلف كثيرا عن وعى ذويهم فى بلادهم الأصلية، فهم سلبيون لا يجيدون اللعبة السياسية فى بلادهم الجديدة، فلم ينظموا الصفوف ليعبروا عن مصالحهم بالأسلوب المتبع ولا هم قادرون على توصيل آرائهم للسلطات هناك بالرغم من الانخراط الدائم فى نسيج المجتمع، وفى الجيش الأمريكى مثلا حوالى أربعة آلاف مجند من المسلمين ومنهم سيدات طلبن من السلطات أن يرتدين الحجاب وتم لهن ذلك.

ولما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على أفغانستان عادت مشكلة مسلمى الشمال إلى الظهور مرة أخرى، إنها مشكلة حمل السلاح مع الجيش الأمريكى لمحاربة مسلمين، فعندما أعلنت أمريكا الحرب على العراق عام ١٩٩١، رجع المجندون المسلمون فى الجيش الأمريكى إلى قياداتهم الإسلامية يسألون هل الاشتراك فى هذه الحرب حرام؟ وكالعادة، طلب المجلس الفقهى الأمريكى من مشاهير علماء المسلمين فى العالم الإسلامى الرأى فوصل المجلس ٥٠ فتوى ثلاثون منها يتيح الاشتراك فى الحرب وعشرون تمنع ذلك. ويحرص الدكتور يوسف القرضاوى إذا كان هو صاحب الفتوى سواء كان بنفسه أو من خلال لجنة يشكلها من القضاة والفقهاء، على أن يضيف عبارة « وحسب الظروف عند مسلمى الشمال »

وفى كل الحالات فمن حق لجنة الفتوى فى الشمال أن تأخذ بفتوى العلماء أو تضيف بعض التعديلات ويمكن أن يعتبرها مجرد مرجع، وكل شىء حسب الظروف.

وقد أفتت لجنة الفتوى للمجندين المسلمين فى الجيش الأمريكى بأن يحكّم كل منهم ضميره، فإذا طاوعك ضميرك فلتحارب، وإذا لم يطاوعك فسوف تفعل ما سبق أن فعله الملاكم العالمى محمد على كلاى الذى أشهر إسلامه ورأى عدم المشاركة مع الجيش الأمريكى فى حربه ضد فيتنام، ويتيح الدستور الأمريكى ذلك، ويحيله للمحاكمة أما العقوبة فهى غرامة مالية، مقدور عليها.

ومن رأى المرشد الإسلامى العام فى الجيش الأمريكى، أن يطلب من السلطات الأمريكية أن يتخلى الجنود المسلمين عن خطوط المواجهة فى الحرب ليعملوا فى الخطوط الخلفية فى أعمال العلاج والإمداد والخدمات الإنسانية وبذلك لا يتخلون عن واجبهم تجاه بلادهم ولا يأتون معصية لا يرضاها دينهم.

لقد وضعت أحداث الثلاثاء الدامى فى نيويورك وواشنطن مسلمى الشمال وكل أمريكا والعالم العربى فى موقف حرج، ورغم أن الكارثة قد عادت على الإسلام بالخير فى هذه البلدان حيث نفدت كل الكتب المطبوعة عن ترجمة معانى القرآن الكريم والقضايا الإسلامية من الأسواق وطلبت الجامعات الأمريكية والمدارس الثانوية أساتذة لشرح تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية لطلابها، لكن الكارثة نفسها هى التى جعلت من معظم مسلمى هذه البلاد متهمين يستحقون العقاب، وهو ما حدث لرغدة، والمهندس محمد عطية فى كندا.

شلال الغرام !

أكثر من أربعة عشر مليون بنى آدم يزورون مدينة نياجرا فى ولاية أونتاريو الكندية على الحدود مع الولايات المتحدة الأمريكية. لمشاهدة واحدة من عجائب الدنيا السبع فى مجال الاستعراض أو المشاهدة المبهرة، مثل جبال إفرست فى آسيا، وشلالات فيكتوريا فى إفريقيا وكهف أسبانيا وفرنسا وميناء ريودى جانيرو وبركان باركيوتن فى المكسيك، إنها شلالات نياجرا الشهيرة، زارتها النجمة مارلين مونرو عام ١٩٥٢ وقضت بها أسبوعين، وصورت حولها فيلما مع جوزيف كوتن بعنوان «نياجرا» عرض عام ١٩٥٣ ويرى بعض نقاد السينما العالمية أن الفيلم كان من أواخر ما قدمته النجمة الراحلة للسينما. الفيلم تم تصوير بعض مناظره فى ولاية أونتاريو إلى جانب نياجرا. ومن الطريف أن المخرج قد بنى هناك فندقا أطلق عليه اسم «كبائن قوس قزح» حسبما نص السيناريو، الذى ينص أيضا على أن موقعه فى مواجهة الشلالات. وبعد أن عرض الفيلم زاد عدد السائحين فى نياجرا ومعظمهم جاء ليشاهد الفندق السينمائى ولم يعثر عليه أحد، فقد هدمه المخرج عقب انتهائه من التصوير مباشرة.

وشلالات نياجرا كانت موضوع أفلام عالمية أخرى منها فيلم «الخنزير الكندى» وفيلم «سوبرمان» الجزء الثانى وفيلم «قبلة طويلة».

جمال إلهى

والكاتب الإنجليزى شارلز ديكنز زار نياجرا صيف ١٨٤٢ لمدة ١٠ أيام، استقل قطارا من مدينة بفلو فى ولاية نيويورك الأمريكية وتوقف عند

الشلالات فى جانبها الأمريكى، واستقل قاربا، ومعه اثنان من العساكر الإنجليز، ووصلوا إلى الجانب الإنجليزى من الشلالات- الكندى حاليا- وكتب يقول: لم أكن قبل مجيئى إلى هذه الشلالات قد شاهدت الجمال الإلهى بهذه الدرجة. فسبحان الله الذى صنع الخضرة اللامعة لهذه المياه، إن هذا الماء من فوقى ملأته العزة والكرامة، وقد طبعت نياجرا على قلبى صورة للجمال سوف تظل هنا لا تتغير ما دام القلب ينبض.

أما الأميرة ديانا فقد زارت نياجرا ومعها ولداها الأميران وليم وهارى عام ١٩٩١.

وكلمة نياجرا، قديمة تعنى فى لغة «الهورونيا» واحدة من فصائل الهنود الحمر أهل البلاد الأصليين «المستقيم» وقد ظهرت هذه الكلمة لأول مرة على الخريطة عام ١٦٤١، أما شلالات نياجرا، فقد أطلقوا عليها اسم «المستقيم» أو «رعد المياه»

وتوجد مدينتان تعرفان باسم نياجرا. واحدة كندية فى ولاية أونتاريو يسكنها ٧٦ ألف نسمة والثانية أمريكية وهى أقدم المناطق فى الولايات المتحدة، وتقع فى ولاية نيويورك- غير مدينة نيويورك- ويسكنها ٦٠ ألف نسمة ويزورها سنويا ٨ آلاف سائح.

الشلالات المبهرة

وشلالات نياجرا ليست أكبر الشلالات فى العالم، إنما هى الأشهر والأكثر إبهارا. ويوجد فى العالم حوالى خمسون شلالا تتميز فى الطول عن شلالات نياجرا. مثلا «شلالات الملائكة» فى فنزويلا يبلغ ارتفاعه ٩٧٩ مترا بينما يبلغ ارتفاع شلالات نياجرا ٥٧ مقرا فقط. لكن المياه فى شلال

فنزويلا أقل بكثير من الموجودة فى شلالات نياجرا التى تندفع منه المياه بواقع ٥٠ ألف قدم مكعب فى الثانية الواحدة.

والشلالات الكندية تأخذ شكل حدوة حصان ويعرفها الكثيرون بهذا الاسم أما عرضها فيبلغ ٦٧٠ مترا، ويجرى الماء فوق صخر «حدوة الحصان» بارتفاع ٦, متر وكان ارتفاعه حتى عام ١٩٥٦ يصل إلى ثلاثة أمتار كاملة وتنزل فى بحيرة صغيرة فى نهر نياجرا فتغمرها بالماء بعمق يصل إلى ٥٢ مترا.

وترجع قصة الشلالات إلى ١٢ ألف سنة مضت، فى عصر الثلج. ولمياه الشلالات مصادر أربعة هى بحيرات إيرى، وهورون وميتشجان، وسوبريور. وتتساقط مياه الشلالات فى نهر نياجرا، وفاصل طبيعى بين حدود كندا والولايات المتحدة الأمريكية، ويصب فى بحيرة أونتاريو، ومنها إلى نهر سان لورانس وهو نهر شهير وفى لغة الهنود الحمر أن «كندا» تعنى الاستقرار أو القرية أما الخرائط التى ظهرت فى الأربعينات من القرن السادس عشر فقد أطلقت عليها «أرض شمال نهر لورانس» الذى ينقل مياه الشلالات ليصبها فى المحيط الأطلنطى (وليست كل المياه التى تكونّها البحيرات الأربع تصل إلى شلالات نياجرا. فهى تكون ٦٠٦٠ مترا مكعبا فى الثانية أى ٥,٥ مليون جالون أى ٢٠,٨ بليون متر مكعب من الماء. بينما لا يصل إلى الشلالات منها إلا ٢١,٦ ألف متر مربع وهو ماء عذب مثل مياه كل الأنهار فى العالم.

وتتجمد مياه الشلالات فى الشتاء من شهر أكتوبر إلى مارس ويأخذ الضباب المنبعث من حركة المياه عليه أشكالا مبهرة تجذب السائحين بنسب كبيرة.

والمغامرة، هواية كثيرين من أهل أمريكا وأوروبا، ولأن الكنديين فى العصر الحديث كلهم من هاتين الجنسيتين، فهم يحبون المغامرة، ويسعون لركوب الصعب. ففى عامى ١٩٨٦ و١٩٨٧ حاول ٢٢ شخصا ركوب مياه الشلالات، ومستخدمين بعض البراميل، وكان كارلسل جراهام أول هؤلاء المغامرين، وكان ديفيد منداى الثانى، وفعل المثل ثلاثة من إحدى الأسر الكبيرة فى ولاية أونتاريو وكرروا التجربة ثمانى مرات فيما بعد بين عامى ١٩٣٠- ١٩٥٦.

وحاول ١٥ شخصا أن يركبوا ماء الشلالات عام ١٩٠١ مستخدمين نوعا من أطر السيارات، فمات منهم خمسة فقررت إدارة المدينة فرض غرامة على من يحاول عبور الشلالات بغير تصريح تصل إلى ١٠ آلاف دولار.

وبين عامى ١٨٥٩ و١٨٩٦ أقبل تسعة أشخاص من هواة المشى على الحبل أن يثبتوا طرفا حبل بين كوبرى وايرل بول، وكوبرى قوس قزح- وهما موجودان حول منطقة الشلالات على نهر نياجرا- ليعبروا عليه أما أول هؤلاء فكان المغامر الفرنسى فرانسوا جرافيليت المولود ١٨٢٤ والذى عاد ليكرر التجربة مرة أخرى وبجرأة أكبر، حيث حمل معه أنواعا من الأطعمة ليسقطها على ركاب القارب الذى يحمل أفواجا سياحية فى نهر نياجرا فى اتجاه الشلالات. وأراد أحد مواطنى نياجرا أن يحذو حذو فرانسوا ولكن بجرأة أكثر، فاختار لتجربته الليل، مما أفقده توازنه وسقط فى النهر ومات.

وفى عام ١٩٦٠ استقلت مجموعة من السائحين قاربا صغيرا، معهم فتاة وشقيقها الطفل ، الفتاة هى «دن» والطفل هو روجر وودوارد، وكانا

يرتديان سترة النجاه، لكن القارب انقلب على مياه الشلالات فى الجانب الأمريكى وتعلقت دن فى أحد مراكز التوربينات الخاصة بالسد الأمريكى لتوليد الكهرباء، وسقط روجر مع مياه الشلالات فى بحيرة نهر نياجرا. ولم يمت، فقد أنقذه طاقم القارب السياحى «عروس الضباب».

بدأت «عروس الضباب» رحلاتها فى نهر نياجرا عام ١٨٤٦. وهى معدية، أو باخرة، أو لانش كبير يحمل السائحين من شاطئ نهر نياجرا، ليستعرض معهم الشلالات مخترقا الضباب الكثيف، ولا يعود بهم مرة أخرى إلا بعد أن يدخل تحت مياه الشلال الكبير المعروف باسم «حدوة الحصان» ولا يخشى فى ذلك شيئا، فإدارة القارب أو المعدية تقدم للسائحين بالطو من البلاستيك يحميهم من مياه الشلالات، أو الرذاذ الناجم من سقوطها. ولا يعمل القارب السياحى بصورة طبيعية إلا ابتداء من شهر إبريل حيث تعتدل درجة الحرارة ويسيل الثلج المتجمد فى النهر وعلى صخرة الشلالات. أما أسعار « عروس الضباب » فهى للبالغين ٨٨ دولاراً وللكبار ٧٨ وللصغار ٦٥، والرحلة تستغرق نصف ساعة فقط.

ومغامرة نهرية أخرى تقدمها الشركات البحرية للسياحة. فاللنشات المقفولة والمفتوحة والتى تجرى بسرعات فائقة فى نهر نياجرا عند مصبه فى بحيرة أونتاريو تشترط على زبائنها ألا يكونوا من المرضى، أو الحوامل وممنوع الأطفال أقل من ست سنوات، ومنها أنواع للعشاق فتتيح لهم الفرصة ليتناولوا الغذاء على صفحة مياه النهر الشهير.

والعربة الأسبانية نوع آخر من وسائل التزحليق على مياه نهر نياجرا، وهى سيارة على الطراز الأسبانى القديم تتعلق بحبال على

بحيرة ويرليول، لتتيح للراكب مشاهدة الشلالات مرة فى الذهاب ومرة فى الإياب.

أما الحنطور الرقيق، فيستعرض الشلالات على الكورنيش الكندى فى مدة ١٥ دقيقة مقابل ٤٠ دولاراً.

كل هذه الوسائل تتيح للزائر استعراض شلالات نياجرا بطريقة متحركة، وهناك طرق لمحبى الهدوء والرؤية المتأنية بعيدا عن الزحام، وذلك من ٨ نقاط مرتفعة على الأرض تتيح فرصة الرؤية الشاملة للشلالات ولمساحات واسعة من ولايتى أونتاريو الكندية، ونيويورك الأمريكية، منها «قرية الميبل».

أما برج مينولتا فيتيح لك مع الرؤية الشاملة فرصة تناول الوجبات الثلاث. وبرج سكاليون له ثلاثة مصاعد زجاجية صفراء تنقل السائح إلى شرفته على ارتفاع ٥٧٧ قدماً وفرصة الرؤية الشاملة متاحة ومعها تناول الطعام وأيضا فى البرج فرصة للتسوق فقد زود بمحلات للملابس وأدوات التجميل.

حكاية بير مسعود الكندى

وفى نياجرا بركة لأهل الخير، يلقون فيها بقطع العملة، لكى تتحقق أحلامهم. بنتها إدارة المدينة لتكون فرصة للتبرع من أجل الخير.. وهى فى ذات الوقت ثمن للفرجة على ساعة الزهور المقامة بجوارها. الساعة كانت قد بنتها إدارة ولاية أونتاريو عام ١٩٥٠ على بعد ١١ كيلو ونصف الكيلومتر شمال نياجرا ثم تم نقلها إلى منطقة الشلالات حديثا وتمت زراعة ١٩ ألف شجرة فيها لتغطى مساحة المينا الخاصة بها وتبلغ ١٢,٢ متر ويبلغ طول عقرب الساعات فيها وهو من معدن استانل ستيل ٤,٤ متر بينما يصل طول عقرب الدقائق إلى ٥,٣ متر.

نياجرا الأمريكية

والجانب الأمريكى من شلالات نياجرا أقل شعبية من الجانب الكندى ومع ذلك فقد أعدت إدارة المدينة هناك أكثر من وسيلة للاستمتاع بصورة الشلالات، منها الطائرة الليموزين وهى طائرة هليوكوبتر تحلق فوق الشلالات والنهر، والبالون المسمى «الملائكة الطائرة» والذى يستخدم غاز الهيليوم ويصعد ٤٠٠ قدم ليرى بانوراما للشلالات ومدينتى نياجرا وما حولها على مدى ربع الساعة.

وعلى الجانب الأمريكى بنوا شرفة أو مصطبة تطل على النهر والشلالات وتستعرض كهفا فى الصخر اسمه «كهف الريح».. وقد صنعته الطبيعة تحت مياه النهر. ويمكن أن ينزل لها الزائر من خلال مصعد أعد لذلك.

وقناة إيرى، طولها ١٦٠٠ قدم وترتفع لـ ٦٠ قدما مما يتيح لقارب صغير أن تتهاوى على مياهها على مدى ساعة وربع الساعة أما درجة الحرارة فيها فهى ثابتة صيفا وشتاء وهى معتدلة تتيح للزائر ارتداء «تى شيرت» فى عز الشتاء.

ومتحف الشمع بالقرب من الشلالات فى الجانب الأمريكى فيه تماثيل لنجوم المجتمع الأمريكى، وللبراميل التى استعملها المغامرون فى ركوب ماء الشلالات وللقرية الهندية التى كانت قبل الاستعمار الأوروبى لكندا ولخرائط المنطقة وكيفية استخراج الكهرباء من شلالات نياجرا ولأسلوب الإضاءة الليلية للشلالات.

الرؤية الليلية

هناك أربع محطات لتوليد الكهرباء فى كندا وأمريكا على شاطئ النهر المشترك، نهر نياجرا عبر محطة لويستون الأمريكية الضخمة فى

ولاية نيويورك، وقد بنت السلطات الأمريكية قناطر طولها ٤٦ متراً على المياه القادمة للشلالات، أما محطات توليد الكهرباء على النهر فتمد أمريكا بـ ٢,٤ مليون وات وتمد كندا بمليونى وات وذلك يكفى لإضاءة ٢٤ مليون لمبة قوة كل منها مائة وات.

ومنذ عام ١٩٢٥ تضاء شلالات نياجرا على الجانب الكندى من خلال ٢٢ كشافا يصدر كل واحد منها طاقة ضوئية قدرها ٢٥٠ مليون شمعة، تسلط على الشلالات فى ألوان متغيرة من الأبيض والأحمر والموف والأخضر والأزرق تجعل الشلالات أكثر جاذبية وإبهارا، وابتداء من شهر نوفمبر إلى شهر يناير يقام مهرجان دائم لإضاءة المنطقة كلها- مبانيها وأبراجها- مع مياه الشلالات المتجمدة، تصاحبها موسيقى حفلات حية واستعراضات مسرحية. تكمل سيمفونية الأضواء النهارية التى تظهر فى شكل قوس قزح الذى يرى بعد شروق الشمس فى الجانب الأمريكى وعندما ترتفع ينتقل إلى الجانب الكندى.

مزار للحب

وتكمل طيور النورس المناخ الرومانسى لمنطقة شلالات نياجرا، ويتناثر العشاق على شاطئ النهر لتصنع من المنطقة عاصمة الرومانسية فى العالم، ففى عام ١٨٠١ تزوجت ثيودوسيا بور، ابنة نائب الرئيس الأمريكى فيما بعد- من جوزيف ألستون فى مدينة ألبانى بولاية نيويورك. فقضى العروسان شهر العسل فى نياجرا تزفهما الخيول والخدم والحشم مما دفع ثنائيا آخر لنفس العمل، وهما جيروم بونابرت الشقيق الأصغر لنابليون بونابرت وخطيبته إليزابيث باترسون وقد تم زفافهما عام ١٨٠٤ هناك وقضيا شهر العسل أيضا.

ثم ذاعت أغنية عام ١٨٤١ موضوعها «شهر العسل فى نياجرا» وما لبثت أن انتشرت على ألسنة هواة الغناء، وتقول كلماتها: آه.. يأتى المحبوبة آلاف الأميال.. يتركون بيوتهم وأمهاتهم.. وعندما يصلون إلى شلالات نياجرا.. لا يرون إلا بعضهم البعض. شاهد مياه نياجرا تدور.. شاهد ضباب الربيع.. شاهد المحبين السعداء يرقصون.. إنه زمن كل فرد.. اليوم.

ومن ذلك الحين عرف عن مدينة نياجرا أنها عاصمة شهر العسل فى العالم ومدينة شلال الغرام.